الدكتور ياسين صادق
مبعوث حكومة السودان إلى موسكو

(مذكرات موفد حكومي سوداني)

٧ أشهر في الاتحاد السوفياتي



طبعة ثانية منقحة

٧ أشهر في الاتحاد السوفياتي

الدكتور ياسين صادق
مبعوث حكومة السودان إلى موسكو

طبعة ثانية منقحة

(٦)

(مذكرات موفد حكومي سوداني)

٧ أشهر في الاتحاد السوفياتي

حقائق عن الماركسية
يصدرها: فؤاد كرو
تعاونه نخبة من رجال الفكر والاختصاص
بناية القوبي — شارع سعيد عقل
برقيا : ماكوماركس
هاتف : ٢٥٤٧٥٦
بيروت — لبنان

١٩٧٢

توطئة

انا عائد من الاتحاد السوفياتي حيث مكثت شهورا أتاحت لي الاطلاع على مختلف أوجه الحياة بعدما كنت قرات عنها الكثير واعجبت بما قرات حتى أصبحت أرى في الدولة الاشتراكية الاولى في العالم قدوة ومثالا لما يجب ان تكون عليه الدول الاخرى . فقد تراءى لي من خلال الكتب والمنشورات والصحف ان الاتحاد السوفياتي بات جنة يحلم بولوجها كل انسان وحسبت ان المبادىء والشعارات الشيوعية تفيض المن والسلوى على من يعتنقها .

ورغبت بصدق ، في زيارة هذا البلد لكي اعيش بعض الزمن في « الجنة الشيوعية » واستمتع بنعمها والخيرات . لكن الزيارة تكشفت عن حقائق مذهلة عكست كل ما سمعت وقرات . فالشعارات شيء ، والواقع شيء اخر . فمن خلال التجربة التي عشتها استطيع القول ان « الجنة » التي تحاول الدعاية الشيوعية ان ترسمها في أذهان العرب ما هي الا « جحيم » فيه يتقلب مئات الملايين من أبناء الاتحاد السوفياتي وتسوده ظروف وأوضاع لا تختلف ، أبدا ، عن ظروف طغت على البلاد ابان حكم القياصرة الذين قلبهم الشيوعيون بقيادة لينين ، ليحرروا البلاد من الارهاب والتخلف والفقر فاذا بهم يغرقونها في أجواء أقسى وأشد من الارهاب والفساد . لم يتبدل سوى الحكام .

زرت الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٦٧ م. اوفدتني حكومة السودان للتخصص في دراسات عليا فوق الجامعية طوال اربع سنوات أنال بعدها شهادة تخصص عليا . الا ان الحياة استحالت هناك وكذلك التحصيل العلمي . فعدت ، مع رفقائي ، الى السودان

ونحن مؤمنون بأن مصلحة السودان العليا ، بالاضافة الى الامانة العلمية والانسانية ، كانت من الاعتبارات الاولى والرئيسية التي حملتنا على اتخاذ قرار بقطع الدراسة والعودة الى البلاد وان كنا نعي ، بوضوح ، الاضرار المادية التي قد تلحق بنا والاهمال الذي قد يلفنا .

واني اروي ، في الصفحات التالية ، تجربتي بصدق واخلاص . فأسرد ، بكل أمانة وتجرد ، ما خبرت وشاهدت وسمعت يحفزني الى هذا العمل احساس بواجب وطني وقومي يحثني على جلاء الحقيقة ، كل الحقيقة ، عن واقع فيه يتخبط الاتحاد السوفياتي فيخبو ، اذاك، بريق الشعارات الشيوعية الذي كاد يعمي بعض البصائر العربية وتلوح المبادىء الشيوعية على حقيقتها الداكنة السوداء لتحرر المواطن العربي ، في كل مكان ، من انوهم بأن هذا البلد الشيوعي الذي فجر الثورة الشيوعية الاولى ، بأسم سعادة الانسان ورفاهه، قد وفر للانسان الحد الادنى من السعادة والرفاه .

واود أن اوضح ، هنا ، أمرا : لست انتمي الى أي حزب سياسي او جماعة في السودان او خارجه . أنا اعيش لمعتقداتي الخاصة ولاسلوبي في تفسير ظواهر الحياة المختلفة في المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية.وفي ضوئها نشطت لكتابة هذه المذكرات التي ولد جزء منها داخل الاتحاد السوفياتي وقبل عودتي الى السودان .

في اية حال ، آمل من كل من يراوده شك بصحة هذه الوقائع او بعضها أن يزور الاتحاد السوفياتي ليلمس بنفسه الصدق في السرد والتجرد في بسط الامور وينفذ الى واقع أليم فيه يعيش مهد الشيوعية الدولية .

المؤلف

الفصل الاول

زرائب ... للآدميين !

واجهتنا ، مذ حللنا في الاتحاد السوفياتي ، مشكلة السكن . من الطبيعي ان يختلف وضع المبعوث ، الذي أنهى تعليمه الجامعي وعاش تجربة الحياة العملية وخبر مسؤولية العمل وتبعات الحياة، عن وضع طالب فقد جميع الفرص في بلده للتحصيل الجامعي وعثر عليها في بلد آخر . هذه الحقيقة الاولية والبديهية ادركتها الدول الغربية وحتمتها طبيعة الحياة والنظام في الغرب حيث يعيش جميع المبعوثين حياة انسانية ذات مستوى وبالطريقة التي يريدونها ويختارونها لكي ينعموا بالاستقرار النفسي وينجحوا في الدرس والانتاج العلمي دون أن تخضع حرياتهم الشخصية لاي قيد .

لكن هذه الحرية معدومة في الاتحاد السوفياتي، بموجب القانون والنظام . فلم يكن امامنا — وهذا شأن الجميع — سوى السكن في داخليات الطلبة . لم نعترض على الحلول في تلك الداخليات ، في البدء وقبل أن نخوض تجربة الحياة الجديدة هناك حيث تخصص الغرفة الصغيرة الواحدة لخمسة من الخريجين السوفيات ، بينما منحنا مدير الاكاديمية امتيازا خاصا قضى بتخفيض العدد الى ثلاثة أشخاص بالنسبة الينا كأجانب . لكننا رفضنا هذا المبدأ بالاجماع واصبنا بخيبة مرة اذ ان ابسط ما يطلبه انسان ، بلغ مرحلة الدراسات العليا ويتفرغ لابحاث تتطلب الجهد والتركيز والاستقرار النفسي ، ان يحيا حياة انسان فقط .

ما هي داخلية الطلاب هذه ؟

انها تتكون من خمس طبقات يعيش فيها حوالي سبعمائة طالب وطالبة وخريج يتخصصون في الدراسات فـوق الجامعية ، وللمبنى حمام واحد فقط يفتح من الساعة الرابعة مساء حتى الساعة الحادية عشرة باستثناء يوم الاحد ، يؤمه الرجال يوما والنساء يوما اخر . وهذا أمر يثير العجب والدهشة في أية بقعة من بقاع العالم الاخرى اذا استثنينا دول اوروبا الشرقية التي تنسج على منوال الاتحاد السوفياتي . وهكذا ، قد يمر على واحدنا اسبوع او شهر كامل دون أن يظفر بالفرصة للاستحمام . اما نظام الداخلية فيشبه حياة السجن بكل معنى الكلمة مع انحلال خلقي رهيب يغشى علاقات الطلاب بالطالبات .

وكنا نشاهد في احدى الغرف ، مثلا خمس طالبات بينهن واحدة متزوجة او اكثر من طالب يأوي الى غرفة اخرى مع اربعة طلاب اخرين لكنه لا يعدم الوسيلة لزيارة زوجته في حجرتها المزدحمـة حيث يمارس معها واجباته الزوجية .

وشاهدنا ، ايضا ، عائلتين من الطلاب والطالبات تقتسمان غرفة واحدة .

هذه الامثلة كثيرة ومتوافرة ، الان ، في جميع داخليات معاهد الاتحاد انسوفياتي وفي غير الداخليات ايضا .

طلبنا من سلطات الاكاديمية ان تسمح لنا بالسكن خـارج الداخلية على أن ندفع بدلات الايجار بالعملة الصعبة . رفع طلبنا الى وزارة التعليم العالي ، وبعد أيام جاءنا مندوب عنها ليبلغنا ، بصراحة تامة ، عدم الموافقة عليه لانه يتعارض مع النظام والقانون. كما رفضوا السماح لبعضنا باحضار زوجاتهم . وقد ادهشنا الرفض في البدء ، لكن الدهشة تبددت عندما علمنا ان الاهتداء الى منزل للايجار ليس أمرا سهلا . فالايجار ممنوع . والشعب السوفياتي يعاني أزمة سكن حادة سيظل شبحها يرعبه في المستقبل البعيد أيضا. وهي من المشاكل الرئيسية التي تواجه السلطات وان كانت العمارات تبنى باستمرار ، بالطريقة نفسها والنمط نفسه ، أي انها « صورة

طبق الاصل » لذلك نرى عائلات كثيرة تعيش في ممرات او غرف . ونجد عائلة مكونة من ستة افراد مثلا تعيش في غرفة صغيرة واحدة هي عبارة عن زريبة ، واذا تزوج احد افرادها فيرقد مع زوجته ، في احدى زوايا الغرفة ليمارس معها واجباته الزوجية بحضور الوالدين والاشقاء والشقيقات .

هذا لا يعني انه لا توجد عائلات تقطن شققا تتكون من غرفتين او ثلاث مثلا . هذه العائلات ينتسب اربابها الى القيادات الشيوعية . كما أن رجالات الحزب الشيوعي وجنرالات الجيش الاحمر يسكنون في شقق كبيرة وفخمة تتوافر فيها جميع أسباب الراحة وينعمـــون بخيرات البلاد ويستغلون عرق ملايين العمال والفلاحين .

قدر لي أن اشاهد مساكن بعض الاصدقاء السوفيات من العمال وغيرهم فاشفقت عليهم وادركت ان اخر عائلة سودانية تتقلب فـي مستوى يفضل مستوى هؤلاء العمال . فالمنزل يتكون من غرفة واحدة تحتوي على سرير او مكتبة ودولاب صغير وبعض آنية الطعام . وفي بعض الغرف يوجد جهاز تلفزيون صغير . كما ان عائلتين تتقاسمان الغرفة الواحدة في اكثر من مكان . ويبدو ان هذه «المشاركة» طبيعية في الاتحاد السوفياتي وان كانت امرا لا يتصوره انسان في السودان او في اية دول اخرى متخلفة كانت أم متقدمة . ذلك ان كرامة الانسان تسمو على النظام . والمجتمع يتكون من الافراد . فاذا كانوا اذلاء أصبح المجتمع ذليلا . وهل يرجى خير من مجتمع للعبيد ؟

والشقق الكبيرة التي كانت تحتلها عائلة واحدة قبـل الثورة قسمت الى غرف صغيرة وزعت كل منها على عائلة . وكذلك الممرات التي سدت بحواجز فاستحالت غرفا تصلح لايواء عائلة معدمة . — ومعظم العائلات معدمة — جدرانها الداخلية محفورة يغطيها دخان ينبعث من الموقد وارضها غير مبلطة ونوافذها مهشمة ، يحجبهـــا ستار من القماش ليدرأ عن الاطفال والاولاد لسعات بـرد الشتاء القارس . وفيها نور كهربائي واحد لا يمكن اضاءته الا في المساء ، ذلك ان ادارة المبنى تقطع التيار الكهربائي في النهار لتوفير الطـــاقة الكهربائية .

احد العمال ، وهو رب عائلة ، روى لي مأساته . قال :

كنت طفلا عندما انتقلت مع والدي الى موسكو لنقطن غرفة صغيرة واحدة مع أن عدد افراد العائلة بلغ ، آنذاك،تسعة اشخاص، ولاقتسم فراشا واحدا مع شقيقين اخرين . عندما تزوجت ، فيما بعد ، نلت مع زوجتي سريرا خاصا في الغرفة العامة . ظفرت بغرفة صغيرة بعدما رزقنا طفلنا الاول . ولم أحصل على شقتي الحالية التي تتكون من غرفة ومطبخ الا بعد انقضاء عشرين عاما على زواجي » .

وأضاف : « ان غالبية الشعب السوفياتي تعيش في اوضاع مماثلة ، اي أنهم عاشوا في غرفة مشتركة بين وقت واخر . ويمكن القول أن ٩٩ بالمائة من سكان موسكو كانوا يعيشون حتى عام ١٩٥٦ ، في مساكن جماعية حيث تشترك عدة عائلات في مطبخ واحد . ولم تتجاوز نسبة العائلات التي ظفرت بغرف خاصة واحدا بالمائة . لكن المشاريع السكنية التي نفذتها السلطات السوفياتية ساعدت على تخفيض النسبة بعض الشيء . فهناك عائلات كثيرة تتقاسم مساكن مشتركة حتى الان بينما العائلات الاخرى التي اسعفها الحظ على النجاة من هذه المساكن لم تظفر الا بغرفة واحدة ايا كان عدد افرادها ، او بشقة صغيرة تضم غرفة ومطبخا ومرحاضا » .

وارى من المفيد ان اشير الى أن الحصول على غرفة او شقة صغيرة يستدعي اجراءات صعبة ومعقدة ويتوقف ، بالدرجة الاولى، على توصية تصدر عن رئيس العامل والاتحاد العمالي واللجان الحزبية وترتكز على سلوك العامل ونشاطاته الاجتماعية والحزبية والسياسية من هنا نرى أن الاشخاص « غير المرغوب فيهم » يستحيل عليهم الظفر بغرفة او شقة خاصة حتى وان انتسبوا الى تعاونيات السكن او ارادوا ان يبتاعوا واحدة لان السعر باهظ يصعب عليهم دفعه ولان عليهم أن ينتظروا دورهم . وقد يدوم الانتظار عشرات السنين .

نشطت السلطات المختصة ، ابتداء من عام ١٩٦٢ ، لبناء شقق صغيرة تمنح لاعضاء اللجان الحزبية والموظفين المدنيين والعسكريين .

بلغ معدل مساحة الشقة الواحدة لعائلة تتكون من ستة اشخاص ٤٢ مترا مربعا بما في ذلك المطبخ والمرحاض، أي ان المساحــة التي تبقى صالحة للنوم والاستقبال وتناول الطعام لا تتعدى بأية حال ثلاثين مترا مربعا ، وهي تعادل مساحة غرفة من الحجم المتوسط . هذا ، بالاضافة الى ان مستوى البناء هزيل والبناء يفتقر الى معظم وسائل الراحة الاساسية . أما القادة المدنيون والعسكريون الكبــار فيملكون قصورا وابنية فخمة بالاضافة الى منازل ريفية للراحة .

وقد كشفت جريدة « ازفستيا » الرسمية بعض العورات في المشاريع السكنية وفشل هذه المشاريع عندما قالت في نيســان ١٩٦٧ : « من العسير القول ان المشاكل السكنية تدنو من الحل . علينا ان نستمر في جهودنا لتنفيذ المشاريع المقترحة التي تتطلب انفاقا دقيقا ومدروسا للاعتمادات التي رصدتها الحكومة . ذلك ان الامور لا تسير ، مع الاسف ، وفق الخطة المرسومة وان مبالغ ضخمة تهدر . كما أن مستوى العمل غير مقبول ... »

يتضح من هذا ان الشقق تسلم الى شاغليها قبل أن تنجــز بصورة نهائية ، ثم يتهاون العمال في تنفيذ ما بقي من اعمال . وتتندر بعض الاوساط بحادثة طريفة وهي ان ثلاثمائة عائلة مــن شاغلي مجموعة من الغرف والشقق في احدى المجموعات السكنية لم تتمكن من استخدام طباخات الغاز ، طوال سنتين ، بعدما ماطل العمــال المختصون في وصل انابيب الغاز في المبنى بالانابيب العامة .

وبتاريخ ٢٤ ايلول ١٩٦٧ نشرت مجلة « سوفتساكيا روسيا » الرسمية كتابا بعثت به اليها احدى النساء . قال الكتاب :

« تسلمت ، منذ أربع سنوات ، شقة تتكون من غرفة واحدة تقع في مجموعة سكنية تضم خمس طبقات . سعدت كثيرا بغرفتــي الحديثة . لكن سروري بددته القطرات الاولى من المطر : فالميــاه تسربت الى الداخل عبر الجدران . الرطوبة تغشى الغرفة وفي الشتاء اتقزز لان الحرارة لا تتعدى عشر درجات . لا يريد احد أن يساعدني ، لا ادارة المنزل ولا شركة البناء المسؤولة ... »

أما العامل ر. ش. م الذي يعمل في مصنع للخشب فقد روى لي اسلوب الحياة في المساكن . وهو عازب . قال انه ارغم على السكن مع عائلة غريبة عنه في البدء ثم حشر في مساكن عامة تفتقر الى أسباب الراحة البدائية . واضاف : « لا يوجد مكان خـــاص للاستحمام . والمنزل يفتقر الى مياه الشفة ومياه الغسيل . ما أن يعود المرء الى غرفته مرهقا حتى يضطر الى البحث عـــن الماء او الحطب او ليتولى تنظيف المكان الذي تعوزه غرف الاستراحة ولا توجد فيه اية صحف او مجلات . أما الهاتف فلا يلوح له اثر ... اننـــا نعيش في زرائب تأباها الحيوانات . لكنا مرغمون علـــى القبول بها، والا ... »

هذه هي بعض جوانب الحياة في الاتحاد السوفياتي رائـــد المعسكر الاشتراكي واكبر اكذوبة تعيش فيها الشعوب المتخلفـــة واعمق هاوية تسير بعض هذه الشعوب نحوها بعدما سقطت شعوب اخرى فيهـــا .

وبديهي القول ان دولة تفشل في توفير المسكن اللائق لابنائها تعجز عن تأمين الحد الادنى من متطلبات العيش لهم . فالمساكن اقل ما يقال فيها أنها اكواخ او زرائب لا أثر فيها لاسباب الراحة الصحية وتكاد تخلو من الاثاث العادي ناهيك عن أجهزة الراديو والتلفزيون التي لا توجد الا عند المحظوظين . ونجد بين العرب ، مع ذلك ، من يتغنى بأمجاد الشيوعية وفوائدها الاجتماعية والاقتصادية ،مع ان الشيوعية والحرمان توأمان لا يفترقان ...

غير أن اوضاع بعض المبعوثين الذين يمثلون الاتحادات العمالية تختلف . فهؤلاء يعيشون في نعيم ، اذا قيست حالتهم باوضاع الطلاب، ويمنحون امتيازات تساعد على تلقيحهم بالمبادىء الماركسية اللينينية قبل أن يعودوا الى بلدانهم رسلا يكرزون بالتعاليم الماركسية ويشيدون بعظمة الاتحاد السوفياتي .

في عام ١٩٦٧ اوفد اتحاد عمال السودان عشرة من السودانيين الى الاتحاد السوفياتي لدراسة قوانين العمل والعمال بالاضافة الى

دراسات فنية كما زعم الاتحاد انذاك . تراوحت اعمار هؤلاء بين العشرين والخامسة والعشرين وترجح مستواهم العلمي بين الدراسة الاولية والوسطى .

التقيت احدهم ، صدفة ، في موسكو وكنت اعرفه جيدا في السودان . اطلعني على حكاية وصولهم الى موسكو وابلغني انهم يدرسون الان في مدرسة النقابات التي تضم مبعوثين من اكثر من ثمانين دولة .

تبادلنا بعد ذلك الزيارات التي اتاحت لي مجال التعرف الى جميع الاخوة السودانيين اعضاء الوفد وساعدتني على معرفة بعض اوجه الحياة عندهم في الداخلية والدروس التي يتلقونها في المدرسة . وقد لاحظت انهم يسكنون بطريقة معقولة وفي مستوى يفوق الى حد كبير مستوى الطلبة والخريجين الاخرين في المعاهد او الجامعات الاخرى في موسكو . يشغل شخصان اثنان فقط غرفة وا دة . ومطعم داخليتهم جيد . ويملكون حجرات خاصة للرياضة والمطالعة والموسيقى ، وهي اشياء لا تخطر على بال احد في الاتحاد السوفياتي ولهم وسائل مواصلات خاصة ينتقلون بها من مكان السكن الى المدرسة وبالعكس ويتقاضون راتبا شهريا يبلغ مائة وعشرين روبل ، أي أكثر من مرتب الاستاذ الروسي الذي يدرسهم واكثر من مرتبات الطلبة الاجانب الذين يدرسون دراسات جامعية والذين يتقاضون تسعين روبل في الشهر ، واكثر مما يتقاضاه الاجانب الذين يدرسون دراسات فوق الجامعية ويحصرون لشهادات عليا كالماجستير والدكتوراه اذ أن مرتب هؤلاء الشهري لا يتجاوز مائة روبل .

يتمتعون، فوق هذا، بامتيازات عجيبة عديدة . فهم يدخنون السجاير الانكليزية والاميركية ويدفعون ثمنا رمزيا لها بالعملة المحلية .

من الواضح ان هذا الوضع غير طبيعي لانه ينطوي على تمييز واضح فاضح لا تبرره في اية حال المؤهلات العلمية. والتفسير الوحيد لهذا التمييز هو انه ضرب من الرشوة يمكن الشيوعيين من أن

يغرسوا ، في اذهان هؤلاء الايمان بأن العمال والكادحين ينعمون بحياة سعيدة في دولة العمال والفلاحين .

اعتقدت في البدء أن الدراسة ترتكز على امور فنية ومهنية وقوانين النقابات . لكن اطلاعي على برنامج التدريس رماني بالدهشة اذ أن غالبية المواد تقتصر على الماركسية ـــ اللينينية وتاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي والديالكتيك ، وبصورة خاصة الالحاد الذي له كرسي خاص يشرف عليه اختصاصيون . كما أنهم يدرسون نظرية التطور واصل الانسان للعالم داروين . جميع هذه المواد مترجمة الى العربية وتملى عليهم بهذه اللغة في كراسات يحفظونها عن ظهر قلب ... ثم يتحول هؤلاء الى « كوادر » عمالية تنشط لنشر الشيوعية في اوساط العمال والفلاحين .

عندما كانت تدور بيننا مناقشات حول بعض المسائل السياسية العامة وسواها كنت أسمع منهم افكارا غريبة وخاطئة ومضللة عن الانظمة الاخرى ، وعن الدين الاسلامي والاديان الاخرى . وكانوا يرددون حرفيا ما تلقنوه في المدرسة ، اي انكار وجود الخالق ، وان الاديان جميعها تضلل الشعوب وهي عدوة الشعوب لانها تحول دون تقدمها وتطورها كما قال ماركس ولينين . ثم يرددون آراء ماركس عن الصراع الطبقي في المجتمع ودكتاتورية البروليتاريا واستغلال العمال بواسطة الرأسماليين والاقطاعيين ... الخ . ولم يتورع بعضهم عن ترديد شعارات ملتهبة عن الثورة العمالية المرتقبة في السودان والقول انهم سيفجرون ، فور عودتهم ، الى السودان الثورة العمالية وينتقمون للعمال المظلومين من اعدائهم الرأسماليين ثم يقيمون دولة العمال ويحققون دكتاتورية البروليتاريا والماركسية ـــ اللينينية .

وقد عجبت لضحالة التفكير الشيوعي السوفياتي كيف يدرس الاقتصاد الماركسي وتاريخ الحزب الشيوعي والنظرية الدروانية واصل الانواع والتفسير المادي للتاريخ الى صبية صغار لم يتجاوز مستواهم العلمي المرحلة الاولية والوسطى . أن هذا لعمري ينطوي على مهانة كبرى للشيوعيين لو يدركون ذلك . ان الشيوعية لا تجد رواجا

الا في اوساط الجهلة والحاقدين انصاف المثقفين والانتهازيين لانهـا تستطيع ان تقود الجاهل الاعمى الى حيث تريد لكنها لا تستطيع ان تعيش يوما في نور الحقيقة والمنطق . لذلك فقد اختار الشيوعيون امثال هؤلاء الصبية ليملأوا عقولهم بالتحريفات ويدفعوهم للترويج لافكارهم في اوساط العمال والفلاحين .

والغريب أن حكومة السودان سمحت لهؤلاء بالسفر دون ان تعرف الاسباب الحقيقية لسفرهم او دون ان تحظر الملحق الثقافي السوداني ليحاول الوقوف على اهداف الزيارة التي تنطوي على مخاطر جمة تتناول مستقبل السودان وسيادته . وكان من الاجدى للسودان ان يوفد شبانا من اتحاد العمال وغيره للتخصص في قضايا فنية ومهنية تفيدهم وتضمن مستقبلهم وتعود بالنفع على البلاد .

ترسو على الحكومة السودانية مسؤولية كبيرة في تنظيـم البعثات الدراسية بغية استئصال المخاطر وتجنب الاضرار . هنالك احزاب وهيئات غير رسمية تتبادل البعثات الثقافية دون علم الحكومة والحزب الشيوعي السوداني(١) يستقبل بعثات دراسية من الاتحاد السوفياتي ويوفد مندوبيه دون استشارة السلطـات السودانيـة المختصة ، وكذلك حزب الشعب الديموقراطي سابقا وبعض المنظمات الاخـرى .

هذه الفوضى ستعود على البلاد بأفدح الاضرار ، اذ ان الحكومة وحدها هي التي يجب ان تتعامل مع الحكومات الاخرى وتقبل المعونات الفنية والدراسية التي تتفق مع برامج التطور العلمي والثقافي .

اما الاحزاب فتوفد شبانا غير مؤهلين علميا ولا يحمل معظمهم الشهادات الثانوية . الا ان المعاهد السوفياتية تشرع لهم ابوابهـا لكي تحولهم الى رسل للشيوعية دون أن تحفل بمستواهم العلمي .

---

(١) حدث ذلك قبل الانقلاب الشيوعي الاخير الفاشل الذي وقع في عام ١٩٧١ وادى الى استئصال الشيوعيين وتوطيد حكم الرئيس النميري .

مع العلم ان الدولة التي تساير في المؤهلات العلمية لاسباب سياسية لا تحترم نفسها ولا يحترمها الاخرون . والجري وراء كسب صداقة الشعوب المتخلفة يجب الا يجرف الرفاق ويغرقهم في المجاملات على حساب المؤهلات العلمية ، لان هذا الكسب رخيص يلحق الضرر بهم وبالبلدان المتخلفة في المجالات العلمية والفنية والتكنولوجية .

لكن النتيجة تأتي دائما سيئة ومحزنة . فهؤلاء الشبان يعودون، في غالبيتهم ، وهم يحملون شهادات من جامعة لومومبا او المعاهد الاخرى تتضاءل عن المستوى العلمي المطلوب ويعانون من نفسية مهشمة ، ومن اعصاب انهكها ادمان الخمرة والركض وراء النساء.. حتى أن بعضهم فقد عقله وانتحر ... هذه بعض الاعباء الجسيمة التي ترثها الدول المتخلفة من علاقاتها الثقافية بالاتحاد السوفياتي والدول الاخرى في المعسكر الشيوعي .

ولست اجد بدا من القول هنا ان الحزب الشيوعي السوداني عضو في الحزب الشيوعي العالمي وقيادته في موسكو — الحزب الشيوعي السوفياتي . وقادة الحزب الشيوعي السوداني يحضرون الاجتماعات الشيوعية في موسكو بانتظام وينسجون اخطر مؤامرة على السودان ، بالاتفاق مع سادتهم السوفيات ويزودون الاتحاد السوفياتي بجميع المعلومات والاسرار عن السودان والدول العربية الاخرى ، وان انطوت على منفعة لاسرائيل .

ان قادة الاحزاب الشيوعية في العالم يعاملون كرؤساء وزراء او جمهورية عندما يصلون الى موسكو . فيحلون في افخم لوكندة لا ينزل فيها سوى الزعماء الشيوعيون الاجانب . لذلك نراهم يندهشون لهذا التكريم في هذه اللوكندة التي يجدون فيها كل ما تشتهي معدهم الخاوية . خدمات ممتازة . طعام ممتاز . سينما . مسرح . خمور انكليزية وفرنسية واميركية . ويستقلون عربات « شابكة » المخصصة لاعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ...

كل ذلك لاغرائهم واعطائهم صورة مشرقة عن نجاح النظام وتقدم البلاد وايهامهم ان الشعب بجميع فئاته يتقلب في هذا النعيم .

فيترسخ عند ذاك ايمانهم بالعقيدة الماركسية ــ اللينينية ويضاعفوا نشاطهم في خدمتها والتبشير بها .

ولكن ، لم يصدق المثل القائل « اقرأ تفرح ، جرب تحزن » في بلاد. كما صدق في الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية الاخرى .

الفصل الثاني

شهادات ماركسية ...
وافتراء على الاسلام

سبب آخر بعد أزمة السكن ، حدا بنا الى مغادرة الاتحاد السوفياتي: انه الموضوع الاكاديمي الذي سافرنا من أجله. فالشهادة التي اردنا الحصول عليها من معاهد الاتحاد السوفياتي هي شهادة الدكتوراه ، وعرفنا خطأ ، قبل رحيلنا الى موسكو ، انها تعادل عند الروس شهادة « الكانديدات » . وبعدما مكثنا هناك بعض الوقت عرفنا ، بطريق الصدفة ، مدلول هذه الشهادة عند السوفيات انفسهم . في جميع القواميس الروسية — الانجليزية نجد ان هذه الشهادة تعادل شهادة الماجستير في الدول الغربية وفي الاتحاد السوفياتي ايضا . وهناك كتاب رسمي اخرجته السلطات السوفياتية وترجمته الى عدة لغات بعنوان « اسئلة واجوبة عن الاتحاد السوفياتي » هو عبارة عن دليل يحتوي على باب خاص بالشهادات التي تمنحها المعاهد العلمية ويوضح حقيقة شهادة «الكانديدات» هذه بأنها تعادل شهادة الماجستير . وقد عثرنا على هذه الحقيقة في جميع الكتب والمراجع الاخرى .

ولا بد من القول ان المسؤولين السوفيات سحبوا نسخ الكتاب الرسمي من جميع المكتبات بعدما لمسوا خطأهم . الا انني ما ازال احتفظ بنسخة عنه تؤكد حقيقة هذه الشهادة .

وقد رأيت وشاهدت مستوى العمل الاكاديمي العائد لهـذه الشـهادة ، ومن خلاله يمكن القول انه لا يمكن ان يكون اكثر مـــن الماجستير ، بل ان شـهادة الماجستير التي تمنحها بعض الدول الغربية تعتبر أفضل من الشـهادة السوفياتية خصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار اولا ، عامل الزمن ، لان مدة الدراسة في الاتحاد السوفياتي هي اربع سنوات وفي الغرب سنتان . وثانيا الصعاب التي تعترض الانسان عندما يريد ان يتعلم لغة جديدة في عام واحد .

وبانت لنا ، بما لا يدعو مجالا للشك، الاهداف الحقيقية التي تكمن وراء استقبال الاتحاد السوفياتي للبعثات الدراسية القادمة من الدول النامية . فالاهداف سياسية ــ عقائدية بحتة . أما الصداقة المزعومة التي يتبجح بها بعضهم عندنا فهي اكذوبة كبيرة ووهم كبير . فجميع مدرسات اللغة الروسية يجب ان ينتمـــين الـــى الحزب الشيوعي . وجميع كتب تعليم اللغة الروسية للاجانب مهما اختلفت لغاتهم تتحدث عن النظام الشيوعي ونجاحه وتسرف في امتداح ثورة اكتوبر العظمى ، ولينين العظيم والمبادىء الماركسية ــ اللينينية ، ثم تهاجم الرأسمالية والامبريالية العالمية .. الخ مع استعمال جميع الالفاظ والعبارات التي يقرأها المرء ، في كل آن ، على صفحـــات الصحف الشيوعية وفي تصريحات السياسيين الشيوعيين .

وهناك أيضا برنامج جاهز للرحلات الى الاماكن الحزبيـــة « المقدسة » التي يعتقدون بأنها تشير الى عظمة الحزب الشيوعي .

قمنا بالزيارة الاولى لضريح « الزعيم الاوحد لينين » حيث يرقد صاحبه المحنط كالنائم ، كما يزعمون ، وسط حراسة مشددة من رجال البوليس والكمسمولات ــ شباب الحزب ــ . اعداد كبيرة من السوفيات يزورون الضريح باستمرار . وتمت الزيارة الثانية الـــى المنزل الكبير الذي عاش فيه لينين ومات بعدما أصيب في عام ١٩١٨ بطلق ناري من يد امرأة كان أحد أسباب وفاته في عام ١٩٢٤ . يقع المنزل في ضاحية جوركي وفيه استمعنا الى محاضرات مسهبة عن عظمة لينين قائد الثورة الشيوعية الاولى : كيف عاش ؟ .. كيف كان

يقرأ ويأكل وينام ... كيف قادة الثورة البولشفية ... وكيف ... وكيف ... الى اخر الامور التي لا تمت بصلة الى الغرض الـــذي ذهبنا من أجله .

ويفرض على جميع الطلاب الاجانب ، اســوة بالطـلاب السوفيات، ان يدرسوا تاريخ الحزب الشيوعي والعقيدة الماركسية . وتلقى في كل مدرسة ومعهد وجامعة واكاديمية محـاضرات عــن الديالكتيكية المادية تركز على انكار وجود الخالق وتتناول « أصل الانسان » للعالم الشهير داروين . وفي السنتين الدراسيتين الاولــى والثانية من الدراسة الابتدائية حتى المراحل الجامعية وما يليها تحشى ادمغة الطلاب بتعاليم عن الالحاد وبدروس عن العقيدة الماركسية ـــ اللينينية حتى ان كل طالب يرسب في هذه المواد يسقط في الامتحان العام او ان كان متفوقا في العلوم الاخرى ويفقد فرص التقـــــدم والتخصص .

وزرنا ، ايضا المتحف الحربي حيث أصغينا الى محاضرة عن انتصار الشيوعيين على النازية تطرقت الى الفاشية والامبريالية ... الى اخر المعزوفة .

ويجب ان اوضح هنا ان هذه الرحلات تعتبر جزءا اساسيا من البرنامج التعليمي لشعب الاتحاد السوفياتي وللاجانب علــى السواء ... والغرض من كل ذلك واضح ... اذ أن جميـــع الاحتفالات سياسية كانت ام علمية او حتى حفلة كوكتيل يجب ان تتمخض باحاديث عن الثورة البولشفية وقائدها لينين ، وعن الاعوام الخمسين التي مرت عليها . وعلى الجميع ان يمجدوا الاشتراكية الماركسية ولينين العظيم وان يندوا بالاستعمار الاميركي والامبريالية بطريقة مضحكة تثير السخرية وترمز الى ضحالة التفكير . يجــدر بالانسان ان يشير الى هذه الامور ، في كل مناسبة ، والا اعتبر خارجا على النظام .

والدروس العقائدية هذه تفرض ، أيضا ، على نزلاء معسكرات الاعتقالات في سيبيريا . حدثني احد المفكرين من الذين عادوا، حديثا،

من أحد المعسكرات عن هذه الدروس فقال :

« كان يخصص كل يوم خميس للدروس السياسية والعقائدية. حضور هذه الدروس الزامي . الا ان غالبية السجناء الساحقة كانت تحاول التهرب منها لان الجميع ملوا العبارات الشيوعية التي يجترها المدرسون وسئموا شعاراتها ومبادئها وادركوا زيفهـا وبطلانها . كما ان بعض النزلاء درسوا في الجامعات السوفياتية وقرأوا مؤلفات كارلس ماركس وانجلز ولينين وهيجل والفلاسفة المعاصرين فباتوا في غنى عن اي توجيه حزبي او عقائدي » .

واضاف : « ان الامتناع عن حضور هذه الدروس يعرض المرء لعدة عقوبات منها : منعه من استقبال عائلته مع ان الزيارة تتم مرة واحدة في العام — وحرمانه من تسلم طرد بريدي من الخارج — مضاعفة كوتا العمل عليه .

وفي الاتحاد السوفياتي معاهد عدة للعلوم والابحاث مقفلة تماما أمام الاجانب . ولو كان السبب استراتيجيا لهان الامر ، اذ أن معاهد الذرة وابحاث الفضاء والاسرار الحربية يجب ان يبعد عنها الاجانب وسواهم . لكن أن يكون بعض معاهد الابحاث الطبية والبيطرية والزراعية وسواها من معاهد الابحاث السلمية مقفلة في وجه الاجانب ، فهذا امر يدعو الى التساؤل .

ذلك ان جميع معاهد العلم والابحاث السلمية في الدول الغربية تشرع ابوابها امام كل شخص اجنبي او وطني يملك المؤهلات العلمية المطلوبة وتوفر له كل انواع المساعدات الفنية والعلمية ليتمكن من التحصيل العلمي الكامل بمنأى من اي عائق او اعتبارات سياسية . فسلطات الجامعات في الدول الغربية لا تتدخل في السياسة . انها معاهد للعلم وللفكر الحر لم تتحول الى اوكار لتدريس السياسة كما هي الحال في الجامعات السوفياتية . ففي الاتحاد السوفياتي تطبع السياسة كل شيء ، كما أن مستوى المعاهد المقفلة في وجه الاجانب يفضل مستوى المعاهد الاخرى كما اوضح لي بعض الاصدقاء السوفيات . فعلى الاجانب ان يكتفوا بقشور العلم ، اذا وجد ، لكي

يعودوا الى بلادهم وهم يدعون بالخير للاتحاد السوفياتي العظيم وللمبادىء الشيوعية . هذا ما يلمسه كل انسان يعيش الحياة بعقله وفكره وضميره في ذلك البلد . كما أن افراد البعثات التعليمية الاجنبية يخضعون لتوصية من الاحزاب الشيوعية المحلية في بلدانهم قبل أن توافق السلطات السوفياتية على استقبالهم في جامعاتها . ولا تصدر التوصية الا بعدما يتأكد الشيوعيون المحليون، بعد دراسة مستفيضة. من أن الشخص المعني مؤهل لان يتلقح بالمبادىء الماركسية ــ اللينينية ويصبح رسولا امينا لها وداعية للاتحاد السوفياتي . مبعوثون سودانيون عديدون عادوا بهذه الرسالة من موسكو .

ويتجلى بوضوح ، مع ذلك ، ضعف التأثير الماركسي على الطلاب والشباب الذين ولدوا في ظل النظام الشيوعي ولم يتعرفوا الى اي نظام آخر ولم يستطيعوا قراءة اي كتب غير الكتب الماركسية ــ اللينينية او تلك التي تمجد الشيوعية ومبادئها . قال لي احد طلاب الاكاديمية ، وهو من الناقمين على النظام الشيوعي : « لا تعجب اذا سألك الطلاب عن ثمن الثياب في الخارج وعن مستوى الحياة هناك دون أن يتطرقوا الى الحركات الثورية . ولا تحتقرهم اذا صارحوك بأنهم لقحوا ضد السياسة . ذلك ان هؤلاء يعيشون هنا في سجن كبير وما أن يخوضوا ميدان العمل حتى ينشطوا للاهتمام بأسباب معيشتهم ومحاولة تأمين المواد الاستهلاكية التي لا تتوافر الا بمشقة . قد تقول انهم يدورون في حلقة مفرغة وانهم لن ينجحوا في تأمين المواد الاستهلاكية الضرورية الا اذا قادوا معركة سياسية . ولكن هل تعتقد ان العمل السياسي سهل في بلد اوتوقراطي كبلدنا ؟ لا يمكن لاحدنا ان يقامر بالزهيد الذي يملكه اذا لم يكن مطمئنا الى نجاح معركته والا خسر كل شيء ، وربما حياته وحياة افراد عائلته . لذلك ترانا نؤثر الانتظار حتى يحين الوقت الملائم بينما تعمل الحكومة من جانبها لكي تطول فترة الانتظار . »

وأضاف : « لا تحسب ان الطلاب عندنا اقل تمردا من الطلاب في الدول الاخرى . لكنهم لا يجراون على اعلان رفضهم ، بصراحة ، لئلا تنثر على طريق الجامعة العقبات فيمنعوا من دخولها ويحرموا

من التحصيل الجامعي . فيموت عند ذاك مستقبلهم . ومع ذلك نرى حركات طالبية تقوم بأعمال بطولية كتوزيع نشرات مطبوعة علـى الستانسل تنتقد النظـام وتدعو الـى منح الشعب الحريـات الديموقراطية . وقد عرفت هـذه الحركات بأسم « الحركـة الديموقراطية » التي استطاعت ان تتحدى جميع وسـائل الكبت والارهاب . ولا بد ان تتبدل الاوضاع في البلاد عندما يحين موعد هؤلاء الشباب مع القدر ومـع واجب انقـاذ البلاد والشعب ».

ان الاتحاد السوفياتي ، كما قلت في السابق ، عبارة عـن تظاهرة سياسية وعليك ، انت المبعوث ، ان تعيش دائما في دوامة هذه التظاهرة . عليك ان تزور اماكن الحزب الشيوعي التاريخيـة وان تصغي الى محاضرات عن تاريخ الحزب الشيوعي والعقيـدة الماركسية ــ اللينينية . أما ظروف الحياة المعيشية القاسية المتخلفة فتقود المبعوثين وسواهم الى ادمان الخمرة والانسياق في تيـارات الجنس . اذ ، ليس المهم ، في نظر الشيوعيين، ان تكون عالمـا لكن الاهم ان تؤمن ، اولا وقبل اي شيء ، بايديولوجيتهم وتعمل لها، وهذا ما يؤملونه دائما . وان تكون ، من ثم ، صديقا ودودا لهـم فتمنح اذ ذاك شهادة علمية تحملها الى بلادك وانت محطم النفس من الادمان دون أن تملك من المعرفة الا القدر اليسير . وفي الوقت نفسه تكون قد قاسيت من العزلة والحياة البدائية التي يعيشهـا الشعب السوفياتي بكل اعماقها وابعادها .

ان هذه العزلة افقدت السوفيات التربية والثقافة والتقاليـد العلمية المتوافرة في الغرب . وبسبب الاهداف السياسية التي تكمن وراء التبادل الثقافي والبعثات العلمية الوافدة من افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية الى الاتحاد السوفياتي فقد علماؤهم ، ايضا ، الامانة العلمية المطلوبة وحملتهم على مسايرة هذه الدول على حساب العلم والمعرفة . اذ ، يكفي ان تكون مؤمنا بالعقيدة الماركسية لكي تنال اعظم الشهادات . هنا يرسو الخطر العظيم الذي يهدد مستقبل التقدم في الدول التي ربطت نفسها بالمعسكر الشيوعي .

وقد لاحظت ايضا أن نظام الامتحانات شفهي فقط الامر الذي

يضاعف الاهمال عند الطالب لان طريقة الامتحانات هذه توفر لــه الفرصة الكاملة للنجاح وان كان يجهل الكثير . لذلك نرى الطلبة الاجانب يسرفون في معاقرة الخمرة وينصرفون الى النساء دون أن يبدوا اهتماما جديا بدروسهم ، ثم يفوزون في الامتحانات ويعودون الى بلدانهم مزودين بالشهادات الروسية . اما ان يعودوا بالعلم ، فهذا أمر يدعو الى الريبة .

ان ابناءنا يشكلون ثرواتنا وخاماتنا الفنية والعلمية يجب ان يمنحوا التوجيه السليم بعيدا عن الشعارات الزائفة المضللة ومظاهر التهريج . فالشعارات البراقة لا تعبىء الادمغة بالعلم ولا تمــلأ البطون الجائعة ولا تسهم في تقدم البلد خطوة الى الامام . لكنهـــا تحجب نور الحقيقة عن الناس وتدفعهم في متاهات التخلف والجهل والانحلال الخلقي والفقر والحرمان .

في صفحة سابقة تحدثنا باقتضاب عن الدروس الالحادية التي تعطى ، قسرا ، للطلاب . ونضيف هنا ان السلطات التعليمية المختصة تحاول ان تغرس في اذهان الطلاب ان النظام الشيوعي هو النظام الوحيد الذي يهدف الى اسعاد العالم وان الاديان والرأسمالية اعداء الشعب وان المعلم الاول فلاديمير لينين هو المعبود الاول والاخير . لقد أصبح لينين ، فعلا ، الاله الوحيد الجديد في دولة تزعم ان ركائزها مستمدة من العلم الحديث . ان الصفوف الطويلة مــن المواطنــين السوفيات الذين يزورون ضريح « لينين » كل يــوم « ليعترفوا اليه ويسألوه النصرة والعون » برعايــة السلطــات وحراستها واوامرها وتوجيهاتها تعتبر اصدق شهادة على رجعيــة الدولة الشيوعية الاولى في الاتحاد السوفياتي ... هذه الدولة التي أعادت الشعب السوفياتي الى العهود الوثنية المظلمة بعدما فرضت عليه أن يعبد صنما تستنزف بأسمه طاقات الشعب ودماء ابنـــائه وعرق جباههم لتبني له التماثيل . ففي موسكو وحدها يرتفع اكثر من عشرين الف تمثال لفلاديمير لينين .

ان عبادة الفرد التي لمستها في الاتحاد السوفياتي لم اقرأ عنها حتى في عصور الجاهلية الاولى . والدولة الشيوعية في روسيا تمثل

قمة الرجعية ، ذلك ان الوثنية الجديدة واساليب الحياة البدائيــة المتخلفة والحكم الارهابي الاستبدادي تشبه ، بل انها تفوق ببشاعتها واهوالها ، كل ما عرفته القرون الوسطى من انحطاط وتخلــف وارهــاب .

وحملات التجني على الدين الاسلامي تتجاوز جميع الحدود . فالسلطات السوفياتية توزع ، مجانا ، على الطلاب كتاب «الاسلام» لكليموفيتش وترغمهم على دراسته . والكتاب يزخر بالتجني علــى الدين الاسلامي الحنيف ويشكك بنزول القرآن الكريم وبالرســول (صلعم) ليطعن بايمان حوالي خمسة وعشرين مليون مسلم يعيشون في الاتحاد السوفياتي يشن الشيوعيون عليهم حربا شعواء ويحرمونهم من اقتعاد المناصب الكبيرة ، اذ اني لم اقابل طوال اقامتي في الاتحاد السوفياتي مسؤولا حزبيا او حكوميا او عسكريا مسلما .

يقول كليموفيتش في كتابه « الاسلام » : يعتبر الاسلام احد الاديان التي ما زالت خرافاتها تحتل بلادنا . للاسلام تاريخه وعقائده وعاداته . ولكي نلم بروحه علينا ان نعي العوامل التاريخية التــي ارتكزت عليها تعاليمه شأننا في ذلك شأن من يود الخوض في اي دين من الاديان . فنقوى ، عند ذلك ، عــلى محاربة الاســلام واستئصاله من الاذهان . »

وفي صفحة اخرى يقول : « كتب القرآن الذي ينظر اليــه المسلمون باحترام على أنه كتاب مقدس مع الاحاديث والشريعــة الاسلامية في اثناء اقطاعية القرون الوسطى . فاتسمت الاحكام التي نص عليها الكتاب والاحاديث بطابع اضطهــاد الطبقات الشعبية وبررت ، من جهة ثانية ، اعمال العنف التي تعرضت لها الشعــوب المستعبدة . »

ويقول ايضا : « ان طقوس الاسلام وعقائده واعياده والصيام والحج مستمدة من الرواسب البشرية المتفسخة التي تتجلى فــي الاديان الشرقية القديمة ومنبثقة عن مبدأ خاطىء ومنحرف يزعم ان رحمة الله وحدها وليست القوى الشيوعية هي التي توفر للانسان

حياة هناء ورخاء . »

ادعى عديدون ان كتاب كليموفيتش مختلق . القول هراء . فالكتاب موجود في الاتحاد السوفياتي يتداوله كثيرون ولدي نسخة منه .

ومن الاسلحة الرئيسية التي يلجأ اليها الاتحاد السوفياتي في محاربة الاسلام ، وسائل الاعلام الحكومية والصحافة والنشرات والصحف الالحادية كصحيفة « الاخزيسلار » الشهرية لشعوب التتار والاوزبك وصحيفة « دين زسلار » وصحيفة « فيننم دين » . وتصدر دور النشر الحكومية ، باستمرار ، مؤلفات تحارب الاديان السماوية وعلى رأسها الاسلام . و في عام ١٩٦٠ عقد الشيوعيون مؤتمرا عاما في عاصمة داغستان لمضاعفة الحملات الاعلامية ضد الاسلام ثم عقدوا مؤتمرا مماثلا في دوشانب عام ١٩٦٤ حتى ان جريدة برافدا الشيوعية الرسمية نشرت بتاريخ ١٩٥٢/٨/٢٨ مقالا جاء فيه « ان عيد الاضحى يعتبر من مخلفات قرون بعيدة عنا . فهو عدو للعمال يضر بمصالحهم . ذلك فقد وجب الغاؤه . فالشعب السوفياتي انجز البرنامج العظيم للبناء الشيوعي ولا يمكنه العودة الى العادات والطقوس الدينية الرجعية التي ولدت يوم كان الانسان ضعيفا امام قوة الطبيعة التي كان يستسلم اليها اعتقادا منه بأن هذه الاعمال السحرية تساعده على التودد الى الارواح الشريرة لكي يضمن نمو زرعه وضرعه . وعيد الاضحى هو احد الطقوس الدينية الخرافية التي تضر بالشعب السوفياتي ... »

مسلمون عديدون لقيتهم في موسكو تحدثوا عن الاضطهاد الذي يعانون منه واوضحوا كيف ان السلطات الشيوعية تمنعهم من اداء شعائرهم الدينية يوم الجمعة وصلواتهم اليومية كما صارحوني بأنه تم هدم الوف المساجد في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي وان عددا من رجال الدين المسلمين الذين تجرأوا على مقاومة الحملات المناوئة للاسلام ما زالوا يرسون في السجون ومعسكرات العمل في سيبيريا حيث يقاسون المهانة على طفاح .

وما ينوء به الاسلام تواجهه المسيحية ايضا . وهكذا اراد الشيوعيون ان يستأصلوا جميع المثل والقيم الاخلاقية التي تزخر بها الديانتان السماويتان ليستبدلوها بالقيم الماركسية ، فجردوا بعملهم الشعب السوفياتي من جميع القيم دون أن تنفع القيم الشيوعية في تعبئة الفراغ لان الشيوعية ، في اساسها ، تخلو من جميع القيم . فهي رمز للانحلال والانحطاط

الفصل الثالث

في بؤرة التخلف

تتميز الحياة في الاتحاد السوفياتي بطابع خاص ووضع خاص ينبعان من النظام الخاص الذي يتسلط على البلاد . فالذين لم ينفذوا الى واقع الحياة ولم يعيشوه عمليا ايضا يجهلون حقيقة الاوضاع المعيشية والاجتماعية والاقتصادية في الاتحاد السوفياتي وتخدعهم الشعارات البراقة المضللة ... تلك الشعارات التي ترفعها بعض الاحزاب والصحف عندنا في السودان وفي دول عربية اخرى والتي لا تمثل شيئا من الحقيقة ، وبعدما بات الجهر بالحقيقة يعني، في نظرها، العمالة للامبريالية العالمية كما يقول بعضهم دون وعي او ادراك .

كانت ثورة اكتوبر البلشفية عام ١٩١٧ حدثا جديدا في تاريخ العالم الجديد تم تحقيقه بمؤازرة العمال والفلاحين والمثقفين . استطاعت الشعوب السوفياتية في ذلك الوقت ان تدك الحصون القيصرية لتطل على وجه العالم الاخر بعد سنوات من القهر والظلم والاستبداد . ولكن ، ماذا حدث ؟

سقطت القيصرية الظالمة وارتاح الشعب الروسي من ويلاتها ليرسو في جحيم الشيوعية ودكتاتورية الحزب الشيوعي . فلم يتبدل سوى اسم النظام واسماء الاشخاص بينما راح الشعب يندب حظه ويبكي على الامس .

سأتطرق الى الارهاب الشيوعي في فصل اخر . اما في هذا

الفصل فسأبسط فكرة واضحة عن الوضع الاقتصادي والمادي للفرد في الاتحاد السوفياتي لكي تظهر الصورة على حقيقتها عن المستوى المعيشي بعد خمسين سنة من التطبيق الفعلي للمبادىء الماركسية — اللينينية . فابدأ باعطاء فكرة عن قيمة العملة التي يتعامل بها الشعب السوفياتي .

تعرف العملة السوفياتية بالروبل . وهو نوعان :

١ — الروبل الاول العادي الذي يتداوله الشعب السوفياتي دون أية تغطية ذهبية .

٢ — الروبل الثاني الابيض الذي تتعامل به الدولة السوفياتية في تجارتها الخارجية ومع الاجانب الذين يزورون البلاد . لهذا الروبل تغطية ذهبية ، وهو يعرف بالروبل الابيض « فاليوتا » . والجنيه الاسترليني الواحد يساوي ٢،١٦ روبل ابيض .

تفوق قيمة الروبل الابيض قيمة الروبل العادي ، اي أن كل روبل أبيض يساوي خمسة او ستة روبل عادي ، مما يعني ان القيمة الشرائية للجنيه الاسترليني تبلغ ١٢ او ١٣ روبل عادي وربما أكثر . فثمن « الترانشكوت » يبلغ ٥٥ روبل عادي مقابل سبعة روبل ابيض او ثمانية دولارات اميركية مع العلم ان ثمن هذا الترانشكوت في المانيا الغربية ، مثلا ، لا يتعدى ثلاثة دولارات اميركية بالاضافة الى أنه افضل من الروسي . وما تستطيع ان تبتاعه بجنيه استرليني واحد لا يتوافر لك بعشرين روبل عادي ، ذلك ان موسكو تضم حوالي سبعة متاجر خاصة بالبضاعة الاجنبية الجيدة الصنع لا تبيع الا لقاء عملات اجنبية . وهذا يعني ان ابناء الاتحاد السوفياتي ، باستثناء قادة الحزب وجنرالات الجيش عاجزون عن ابتياع اي شيء من هذه المحلات لانهم يفتقرون الى العملات الاجنبية. من هنا نشطت الحركة في السوق السوداء واخذت تجري مبادلات واسعة النطاق بين الاجانب وبعض الافراد السوفيات للحصول على بعض الاصناف الاجنبية بالعملة الروسية .

ولست اذيع سرا اذا قلت ان جميع ابناء الاتحاد السوفياتي

يستميتون في الحصول على البضاعة الاجنبية ، لان الصناعات السوفياتية الخفيفة تنتج اصنافا رديئة جدا لا يمكن ان تقارن ، بشكل من الاشكال ، بالبضائع الاجنبية . فالملابس ، مثلا ، على قدر كبير من الرداءة تفتقر الى ادنى درجات الجودة . ولا يمكن لاي شخص غير سوفياتي أن يضحي بشراء ثياب صنعت في الاتحاد السوفياتي . لذلك نرى ان اقصى امنية تراود ذهن السوفياتي هي أن يرتدي قميصا من النايلون او ينتعل حذاء انكليزي الصنع او يدخن سيجارة اميركية ، ولا يهتدي اليها الا في السوق السوداء . اذ أن هذه الاصناف محصورة في المحلات الخاصة بالعملة الاجنبية التي تعتبر مناطق محرمة على أبناء الشعب السوفياتي باستثناء الكبار منهم ولا تتقاضى عملة سوفياتية . وقد علق احد الطلاب السوفيات على ذلك بقوله : « ان هذه المخازن باعدت بين ٩٩ بالمائة من السوفيات وبين الشيوعية . ان السياسة السوفياتية اهانت البلاد بانشائها قطاعا تجاريا ومتاجر خاصة بالاجانب لا تتداول العملة الروسية » .

يباع قميص النايلون في المتاجر الخاصة بأربعة دولارات اميركية، لكن الثمن يرتفع في السوق السوداء الى حوالي ثلاثين روبل عادي . ويقفز ثمن قميص النايلون المصنوع في تشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية ، في المناسبات الكبيرة كأعياد ثورة اكتوبر واول مايو ، الى خمسة وعشرين روبل عادي ، أي ما يعادل اجرة ١٥ يوم عمل او ما يزيد .

فاذا اخذنا بما يقول بعض المسئولين السوفيات ان الروبل العادي يعادل الروبل الابيض ، اتضح لنا ان ثمن قميص النايلون يبلغ ١٢ جنيها استرلينيا . وهذا شيء مخيف يصعب تصديقه خصوصا اذا عرفنا دخل الفرد المتدني في الاتحاد السوفياتي .

يتراوح راتب خريج الجامعة ، عندما يتسلم وظيفته الاولى ، بين ثمانين ومائة روبل عادي في الشهر . فالطبيب يتقاضى ، فور تخرجه ، ثمانين روبل عادي والمهندس مائة روبل عادي . اما الحد الادنى لاجر العامل الشهري فهو ستون روبل عادي والحد الاقصى

يبلغ ثلاثمائة روبل عادي وفق المستوى الفني وطاقة العامل الانتاجية ، وراتب قاضي التحقيق ١٥٠ روبل . وتتقاضى عاملات صالونات الحلاقة وبائعات « الدندرمة » والعاملات في صناعة الجير وسواهن من العاملات في الحرف البسيطة اجرا شهريا يتراوح بين ستين وثمانين روبل . ويرتفع راتب الاكاديميين الكبار — البروفسورات — الى حوالي سبعمائة روبل عادي في الشهر بينما يملك كبار رجالات الحزب الشيوعي والجنرالات وعلماء الذرة وأبحاث الفضاء حسابات مفتوحة في المصارف ويتقاضون جزءا من مخصصاتهم بالعملة الصعبة تمكنهم من شراء ما يريدون من المحلات الخاصة لسد حاجاتهم البورجوازية والبضاعة الاجنبية التي يحلم بامتلاكها ملايين من ابناء الشعب السوفياتي .

وبغية تقديم صورة واضحة اود ان اجري مقارنة بالاسترليني لدخل الفرد في الاتحاد السوفياتي . تعادل القوة الشرائية للجنيه الاسترليني في الاتحاد السوفياتي حوالي ثلاثة عشر روبل عادي وربما اكثر ، بل يمكن القول ان الجنيه الاسترليني والدولار يتمتعان بقوة « كيفية » تختلف عن القوة « الكمية » . معنى ذلك ان راتب الطبيب السوفياتي يبلغ سبعة جنيهات استرلينية فقط في الشهر وراتب المهندس ثمانية جنيهات ، واجر العامل العادي يتراوح بين خمسة وستة جنيهات استرلينية في الشهر . اما نزيل معسكر الاعتقال والعمل في سيبيريا فيتراوح اجره الشهري بين ٣٠ و٧٠ روبل عادي حسب طاقته الانتاجية وانجاز كوتا العمل المرهق المفروضة عليه .

فهل يستطيع انسان ان يتخيل حالة البؤس والشقاء التي تسود المجتمع السوفياتي ؟

وهل يعتقد احد انه سيكون قادرا على العيش بمثل هذه الرواتب الضئيلة لمدة اسبوع واحد على الاقل ؟

لا اتصور ان هناك شبها لهذا الاستغلال اللاانساني القبيح للانسان في العالم ، حتى في اكثر الدول فقرا وتخلفا ، اللهم الا اذا استثنينا دول المعسكر الاشتراكي التي يتحدث عنها محترفو السياسة

من الجهلة والانتهازيين كأنهم يتحدثون عن الفردوس الموعود .

ومع ان دخل الفرد ضئيل جدا فان الاسعار مرتفعة جدا ، خصوصا اسعار الملابس بانواعها المختلفة ، وهي من صنع محلي . يتراوح ثمن الحذاء المصنوع محليا بين ٢٥ و٤٠ روبل عادي ، ويبلغ ثمن « فانيللا الصوف » حوالي ٦٠ روبل عادي ، وثمن الترانشكوت او « بالطو المطر » حوالي ٥٥ روبل عادي ، وثمن المعطف يتراوح بين ١٠٠ و٢٠٠ روبل ، هذا في بلد ترتفع فيه درجة الصقيع الى اربعين درجة تحت الصفر . اما مستوى الانتاج فرديء ولا يستطيع اي اجنبي ان يرتدي اية ملابس صنعت في الاتحاد السوفياتي .

ملاحظتي الاولى على ما سبق هي انه لا يوجد عندهم تقييم مناسب للاسعار وتكاليف السلع والبضائع والارباح بالنسبة الى دخل الفرد . لذلك نرى ان الاقتصاد السوفياتي يعاني من تناقضات كثيرة وخطيرة يضاعفها الحكم الدكتاتوري الارهابي المتحجر الذي لا يسمح بالنقد او بالتوجيه حتى من كبار الاختصاصيين في الشؤون الاقتصادية ، ولا يسمح بالتالي لنفسه بان ينفتح على تجارب الآخرين من علماء الاقتصاد في الدول الاخرى والافادة منها . فهم لا يعرفون سوى حرفيات الفكر الماركسي في الاقتصاد وان كان فشل هذا الفكر قد ظهر وبان .

اذا ما قارنا متوسط دخل الفرد في الاتحاد السوفياتي باسعار المواد الاستهلاكية الضرورية ادركنا ، تماما ، أي بؤس يعيش فيه الانسان السوفياتي . يقدر متوسط دخل الفرد بحوالي تسعين روبل عادي في الشهر الواحد ، بينما يتراوح ثمن المعطف بين ١٠٠ و٢٠٠ روبل عادي ويبلغ ثمن « فانيللا الصوف » ٦٠ روبل عادي ، وثمن كيلو اللحم ٢ روبل والليمونة الحامضة نصف روبل . . . فكيف يمكن للانسان ان يعيش تحت وطأة هذه الظروف القاسية ؟ من خلال ذلك اقول ان ادنى مستوى لدخل الفرد في العالم نجده في الاتحاد السوفياتي وحليفاته او مستعمراته الشيوعية .

يزعم بعضهم ان ثمن الطعام رخيص . فهل ان الطعام هو

المطلب الوحيد للانسان في هذه الحياة .

ويتبجحون بان الحكومة تؤمن التعليم والخدمات الصحية بصورة مجانية بينما يباع الدواء بثمن بخس مع العلم ان مستوى صناعة الدواء منخفض جدا بالنسبة الى ما هو عليه في الدول الغربية، كما ان الطرق التي تعتمدها الاجزخانات بدائية وعقيمة . فالادوية ليست جاهزة لتسلم الى المريض فورا كما هي الحال عندنا في السودان وفي الدول الاخرى ، لكنها تركب استنادا الى الوصفة الطبية « الروشتة » ولا تسلم الا بعد ساعات وحتى في اليوم التالي .

ولكن ، هل فات هؤلاء ان معظم الدول التي يسمونها رأسمالية توفر لسكانها الخدمات التعليمية والصحية مع الادوية المجانية دون ان تجردهم من حرياتهم ومن حقهم في الحياة السعيدة ؟

ان هذه الخدمات تقع في صميم واجبات الدولة نحو الفرد ، وتعتبر حقوقا شرعية للشعب . ولم تأت الشيوعية الا لتضمن للانسان هذه الحقوق ، كما قيل . فهل استطاعت ان توفرها ؟

من يقرأ هذه المذكرات يخلص الى النتيجة ويستخلص لنفسه الجواب .

اما الجواب الفوري عن السؤال فهو ان الاقتصاد السوفياتي يلهث وراء التطور بعدما تضاعف عقمه وثبت فشله . وقد افاد عدد كبير من ابناء الاتحاد السوفياتي من تطوير وسائل النقل والمواصلات ليمارسوا اعمالا تجارية شتى كأن ينقل احد ابناء جورجيا الى موسكو مثلا ، عدة صناديق من الليمون الحامض توفر له ربحا يوميا يفوق كل ما يمكن ان يكسبه من مصنعه طوال شهر كامل . هذا الواقع خلق قولا شعبيا شاع وذاع في الاتحاد السوفياتي: «منذ الثورة البروليتارية تحول الشعب السوفياتي الى امة من التجار » .

وتعاني البلاد ، باستمرار ، من نقص في المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية ، كاللحوم والالبسة النسائية وسواها . اما الاصناف الاخرى فرديئة الصنع . اذ ان جميع مشاريع التنمية والمحاولات التي

بذلتها السلطات لسد الثغرة باءت بالفشل الذريع ، لان النظام في اساسه فاشل ، ولان التحسس بالمسؤولية عند القيمين على المصانع معدومة . فكل منهم يحاول ان يجني اكبر قدر من المنفعة ولو بااللجوء الى السرقة دون ان يعبأ بالانتاج من ناحية الكم والكيف ، كما ان عدد المراقبين والمشرفين على المخازن والموظفين الآخرين في معظم المصانع يفوق عدد العمال .

ذلك كان من الاسباب الرئيسية التي تذرع بها اعضاء الترويكا الحالية لقلب خروشوف مع ان السبب الحقيقي والوحيد يكمن في الصراع على السلطة . وقد كانوا اعوانا له في تنفيذ سياسته طوال اعوام . ولكن ، هل تبدل شيء في عهد الحكام الحاليين ؟ وهل أصاب الوضع الاقتصادي بعض التحسن ؟ وهل عادت المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية الى الاسواق بكميات معقولة ؟

كلا . استمرار الصعوبات الاقتصادية يتجلى في الصفوف الطويلة من النساء والرجال التي تنتصب امام المتاجر لتحصل على ما يصيبها من مواد غذائية والبسة . ولا يصيبها سوى القليل القليل . والرسالة التالية التي نشرتها جريدة « برافدا » بتاريخ ١٩ اغسطس ١٩٦٦ بعدما تسلمتها من امراة عاملة تدعى ا. الكسييفا تعطي أصدق صورة عن تردي الاوضاع :

« طفت ، امس ، على المتاجر بحثا عن منشفة تركية . فلم اعثر على واحدة . وقيل لي ان هذه المناشف اختفت منذ اربع سنوات . وهذا النقص في المناشف التركية سبب نقصا في مناشف المطبخ . يصعب على المرء ان يعتقد ان التغلب على مشكلة المناشف تتطلب وقتا طويلا . فهل يمكن الاتصال بالمسؤول واستيضاحه السبب » .

وفي اليوم التالي ذكرت « برافدا » ان التحقيقات التي اجرتها اثبتت ان المصانع المختصة لا تنتج سوى خمسين بالمائة من كمية المناشف التركية المطلوبة .

وبعيد افتتاح العام الدراسي لعام ١٩٦٧ ذكرت « برافدا » ان

المكتبات تفتقر الى كتب التمارين وادوات الرسم والمساطر واقلام التلوين والادوات المدرسية الاخرى . واضافت ان السلطات اوصت على ١،٨٦٠،٠٠٠ قلم رصاص لمتاجر كراسنودار لكن الكمية التي حددت لها ، فيما بعد بلغت ٢٨٥ الفا ولم تسلم بكاملها . كما ان نسبة ورق الرسم التي سلمت لا تتعدى ٢،٦ بالمائة من الكمية المطلوبة .

وعلقت الصحيفة الشيوعية على معضلة اقلام الرصاص لتعزو فقدان الاقلام الى نقص في خشب الصنوبر الذي تصنع منه . واوضحت ان هناك مصنعا واحدا لانتاج هذه الاقلام اقيم في منزل قديم ، شبيه بالكوخ ، يقع في تومسك .

والقضية لا تقف عند هذا الحد . ففي السنوات الثلاث الاخيرة اختفت مختلف الادوات المنزلية وآنية المطبخ من مخازن اوكرانيا ، منها الملاعق والشوك واكواب الكرتون التي تصنع من كرتون رديء

معظم الانتاج تعوزه الجودة لان غالبية المصانع تنشط لانتاج اكبر قدر من المواد الاستهلاكية على حساب النوعية بغية تنفيذ البرنامج المرسوم لها . ففي ٢٩ اكتوبر ١٩٦٧ اشارت جريدة سوفستكايا تورغونليا الى ان عشرات الاشخاص تقدموا بشكاوى ضد مصنع باكو لانه سلمهم ثلاجات غير صالحة للاستعمال بالاضافة الى غسالات ومكانس كهربائية ثم قالت ان عدة اصناف اخرى كأدوات تقطيع البطاطس تفتقر الى الجودة والمبادىء الفنية .

وفي ٥ نوفمبر من العام نفسه نشرت الجريدة نفسها رسالة بعث بها اليها احد القراء وقال فيها « ان جهاز الراديو الذي اشتراه قبل اربعة ايام اصيب بعطل . وقد رفضت ادارة المصنع اصلاحه لانها لا تملك قطع الغيار المطلوبة . كما ان احد متاجر الادوات الكهربائية يحتوي على مجموعة من الاجهزة التلفزيونية المعطلة التي انتجها مصنع « لفوف » بعدما اضطر المشرف على المتجر الى انتزاع قطعة او اكثر من جهاز جديد ليستخدمها في اصلاح جهاز قديم نظرا لانعدام قطع الغيار » .

في مجال التعليق على هذه السلسلة من المآسي قال احد الطلاب الجامعيين ان العلة الاساسية تكمن في النفسية القلقة التي تسود العمال ناهيك عن حالة الفقر التي يقاسون منها . واضاف : « هناك وسيلة واحدة تكفل تحرير العامل السوفياتي من قلقه وجموده : ان يتقاضى اجره بالدولار . وسنرى عند ذاك ، انه سيستوي والعامل الغربي على صعيد المهارة والقدرة والانتاج . لكنه لن يتجاوب مع السلطة ولا يمكن ان تحمله العقيدة الماركسية ــ اللينينية على مضاعفة الانتاج ورفع نسبة جودته ما دامت السلطة تدفع له بعملة لا تساوي شيئا وترغمه على ان يعيش في ذل ومهانة وحرمان . لان العقيدة الشيوعية لا يعقل ان تشبع جوعه وتروي عطشه » .

اما الحديث عن صناعة السيارات في الاتحاد السوفياتي فمحزن . بعد خمسين سنة من الاشتراكية تتثاءب المصانع السوفياتية للسيارات على دروب انتاج سيارات عادية ، الامر الذي ارغم سلطات موسكو على الاتفاق مع عدة شركات غربية لانتاج السيارات ، منها شركة فيات الايطالية على انشاء مصانع لها في الاتحاد السوفياتي بعدما منحتها حقوقا وامتيازات تتناقض مع المبادىء الماركسية ــ اللينينية . وقد كان من المتوقع ان تخرج اول سيارة « فيات » من المصانع في شهر نوفمبر ١٩٦٧ لمناسبة الذكرى الخمسينية لثورة اكتوبر . لكن السيارة لم تظهر حتى كتابة هذه المذكرات . وهكذا نرى ان الدولة الاشتراكية الاولى تتطلع الى الدول الغربية ، وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية ، لمساعدتها على بناء نهضة صناعية واقتصادية تنقذها من التخلف الذي تتخبط فيه وتحكم ، بالتالي ، على نفسها وعلى النظام الشيوعي بالافلاس التام .

يقدر عدد سيارات التاكسي في الاتحاد السوفياتي ببضع عشرات الآلاف ، يتركز القسم الاوفر منها في موسكو ولينينجراد وكييف . وفي عام ١٩٦٧ بلغ عدد السيارات الخاصة ٩٠٠ الف سيارة في بلد يضم ٢٣٥ مليون نسمة . وكان من المفترض ان توفر مراكز تأجير

السيارات التي انشئت في مدن كثيرة باوائل الستينات خدمات ممتازة للجمهور وربحا معقولا للدولة . لكن هذه المراكز منيت بالفشل بسبب الاستهلاك الكبير للسيارات نتيجة التهاون في اصلاحها ونظرا لانعدام الشعور بالمسؤولية عند الناس والعناية بسيارات ليسوا يملكونها ، لانها ملك الدولة ، ناهيك عن الطرقات غير المعبدة او التي لا تصلح للسيارات .

فمعظم الطرقات ، حتى بعض الطرقات الرئيسية ، غـــير معبدة . ولا تزيد نسبة شبكة الطرقات المعبدة خارج المدن عن عشر الطرقات المعبدة في الولايات المتحدة الاميركية مثلا . وفي روسيا الاوروبية يوجد نصف مراكز الاقاليم التي ترتبط بموسكو بطرقات غير معبدة مع ان الحاجة الى هذه الطرقات ماسة خاصة لان هناك اكثر من ٦٠٠ مدينة يقطنها ١٢ مليون نسمة لا تخترقها الخطوط الحديدية ولا توجد فيها طرقات معبدة . والمقال الذي نشره الجنرال المتقاعد ن . زينوفيف في جريدة « ازفستيا » يسلط الاضواء على واقع الطرقات المخزي . قال الجنرال في مقاله : « ان عجز الطرقات عن تحمل تقلبات الطقس واصابتها بالشقوق والحفر يضطر حوالي تســعين بالمائة من اصحاب السيارات الى استخدام سياراتهم في الاشهر الخمسة الدافئة فقط من كل سنة ولاغراض التنزه في الريف » .

وذكرت معاهد الابحاث السوفياتية ان الاضرار السنوية التي تنتج عن الطرقات غير المعبدة تفوق ٣ آلاف مليون روبل في العام الواحد . وتفيد الاحصاءات ان الاتحاد السوفياتي غير قادر على انشاء شبكة حديثة للنقل البري قبل عشرين او خمسة وعشرين عاما على اقل تعديل .

حالة الطرقات السيئة تشكل العقبة الاولى امام انتشـــــار السيارات الخاصة . اما العقبة الثانية فتنتج عن النقص الكبير في ورش الاصلاح والصيانة وخاصة النقص في قطع الغيار الذي يورث أصحاب السيارات متاعب جمة ويلحق بالاقتصاد السوفياتي خسائر جسيمة ألمح اليها وزير النقل البري في اوكرانيا ، عندما قال :

« بسبب الافتقار الى قطع الغيار التي يكون ثمنها بخسا في معظم الاحيان تظل السيارة معطلة مدة طويلة . ونتيجة للتوريدات البالغة السوء في وزارة النقل البري الاوكرانية وحدها تصاب بالعطل ، كل يوم ، حوالي ١٤ الف سيارة نقل و٦٠٠ اوتوبيس و٢٠٠ سيارة تاكسي » .

هذا بالاضافة الى ان الحصول على سيارة ليس سهلا . فعلى المرء ان يسجل اسمه في الدائرة المختصة ويؤدي ثلث الثمن على الفور ، ثم ينتظر دوره . وقد يدوم الانتظار ستة أشهر او سنة او ربما سنتين .

وما يقال عن الميدان الصناعي يصح في الحقول الزراعية والحيوانية . فجميع الخطط الخمسية المتعاقبة فشلت في تحقيق اهدافها وما زال النقص الكبير في اللحوم والخضار والفاكهة والاصناف الغذائية قائما ومصدر شكوى وتذمر . الانتاج الزراعي من الحبوب هبط بمعدل عشرة سنتنر اي الف كيلو غرام في الهكتار الواحد في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٦ — ١٩٦٥ والمعدل السنوي لانتاج اللحوم اقتصر بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٥ على حوالي تسعة ملايين طن مع ان المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي اوصى بوجوب زيادة الكمية الى ١٦ مليون طن قبل نهاية ١٩٦٥ .

والمنتجات الحيوانية الاخرى كالالبان والصوف والبيض قصرت عن الخطة التي وضعت لها في عام ١٩٦١ لانتاج ١٣٥ طنا قبل عام ١٩٧٠ . لكن كمية الانتاج في اواخر عام ١٩٦٧ لم تتجاوز ٦٠ مليون طن .

وعانت الثروة الحيوانية . في السنوات الثماني الفائتة ، من نكسة خطيرة . فعدد الخنازير هبط من ٥٨ مليون رأس في عام ١٩٦١ الى ٤٦ مليونا في اواخر ١٩٦٧ . وعدد الاغنام هبط في الفترة نفسها من ١٤٠ مليون رأس الى ١٢٩ مليونا . وعدد الابقار من ٩٧ مليون رأس الى ٩٢ مليونا وذلك بسبب ضآلة الاسعار التي كانت تدفعها الدولة ثمنا للماشية .

وماذا عن الملكية الفردية ؟

من ابجديات الماركسية ــ اللينينية تحريم الملكية الفردية في جميع صورها . وعندما استولى الحزب الشيوعي السوفياتي بقيادة لينين على السلطة ، بعد انتهاء الحرب الاهلية ، حاول لينين تطبيق هذا المبدأ على الفلاحين على مراحل لكنه ما لبث ان اصطدم بهبوط نسبة الانتاج ومستواه بشكل واضح ، فاضطر الى تجميده بعض الوقت حتى تم وضع برنامج خاص عرف بخطة التنمية الاقتصادية الخاصـــة .

لا يملك الانسان السوفياتي سوى الملابس التي يرتديها . فكل شيء ملك للدولة او الحزب أي ان الشعب كله أجير عندهما . والتأميم شمل كل شيء ، حتى ان حياة الانسان نفسها أممت . والتجارة كلها وبانواعها المختلفة ملك الدولة : بائعة الطماطم ... بائعة الفواكه ... بائعة الدندرمة ... بائعة الزلابية واللقيمات ... ماسحات الاحذية ... العاملات في صالونات الحلاقة ... بائعات اليانصيب ... جميعهم اجراء في دولة الحزب الشيوعي . فقـد انتقلوا من سلطة رب العمل الى سلطة الدولة والحزب التي تسومهم انواع الرق والعبودية والذل . وعملا بالمبدأ الماركسي ــ اللينيني « لكل حسب انتاجه » في مرحلة الاشتراكية تستطيع ان تتخيل أي دخل تتقاضاه بائعات الزلابية والدندرمة وماسحات الاحذية .

وغسيل الثياب ، ايضا ، ملك الدولة . واردأ انواع الغسيل وتنظيف الثياب والكي شاهدته في الاتحاد السوفياتي . فبعد وصولنا الى موسكو عشنا في حرية خاصة مدة اسبوع ، فاخذنا بعض الثياب الوسخة الى محلات الغسيل للتنظيف ، فقيل لنا : « التسليم يتم بعد اسبوعين » . عدنا في الموعد المعين لكن الملابس لم تكن جــاهزة واشاروا علينا بالعودة بعد خمسة ايام . ولما رجعنا وجدنا ان نصف الملابس جاهز فقط ، اما النصف الآخر فلم ينجز الا بعد ثلاثة ايــام اخرى . وقد كان التنظيف رديئا لدرجة لا تصدق .

ان دولة تؤمم الغسيل والتنظيف وتستنزف مجهود الانســـان

دون ان تقوى على منح الفرد نصف الخدمات المطلوبة غير جديرة بالبقـــاء .

ويمكن اختصار نصف قرن من الحكم السوفياتي بما يلي : « لم يدفع عدد من الناس بهذه الضخامة ثمنا غاليا لتحقيق منجزات بهذه الضآلة » .

وقال الفيلسوف الصيني لينيو تانك في كتابه « الاسم السري » : « ان حياة الفقر والخوف والانحطاط والانحلال الخلقي التي فرضت على مئات الملايين الرازحين تحت النير الشيوعي تثبت ان التجربة الشيوعية بكاملها كانت فاشلة » .

والمذكرة التي بعث بها زاخاروف اب القنبلة الذرية والمـــؤرخ دافيد والعالم الفيزيائي تورتشين الى السلطات الحكومية والحزبية في الاتحاد السوفياتي تعطي أصدق صورة عن انحلال الاتحـــــاد السوفياتي . ومن المفيد ان اشير الى ان هذه المذكرة أوجدت ردة فعل عنيفة في مختلف اوساط الشعب السوفياتي بينما نشطت فئات من الطلاب لطبعها على الستانسل وتوزيعها نظرا لكونها تعبر أصدق تعبير عما يختلج في نفوس الشعب من اماني وآمال .

طالبت المذكرة بوجوب منح الشعب السوفياتي قدرا أكبر من الديموقراطية والحرية . ثم اضافت ان مستوى الدخل القومي يهبط باستمرار ، والهوة تزداد اتساعا بين مختلف القطاعات الانتاجية الضرورية لدفع عجلة التطور الى الامام ، واخطاء كثيرة تبرز في ميادين السياسة التقنية والاقتصادية والصناعية والزراعية ، كما يبرز تباطؤ اداري غير مقبول في معالجة القضايا الملحة . اذ ان المدخرات اللازمة لتطوير الانتاج لا تبدو سليمة والتقدم التقني يسير ببطء شديد . وثروات البلاد تهدر وتتلف دون عقاب او حساب . فهناك غابات شاسعة تقطع اشجارها . وخزانات للماء تلـــوث ومساحات من الاراضي الصالحة للزراعة اجتاحتها السيول . والحالة المزمنة الخطرة في الحقل الزراعي ، خصوصا فيما يتعلق بالماشية ، اضحت مشهورة يتداولها الجميع ، كما ان دخل السكان الحقيقي لم

يرتفع منذ اعوام ومستوى الطعام والخدمات الطبية والخدمات العامة الاخرى لا تشهد اي تحسن ، وعدد البضائع الخاسرة يتكدس في المستودعات والمتاجر ، وقيمة النقد تنذر بتدهور سريع .والتباطؤ في حقل التعليم يثير القلق من حيث المستوى ذلك ان نفقاتها الاجمالية في هذا المجال تقل بنسبة ثلاثة اضعاف عما هي عليه في الولايات المتحدة الاميركية نفسها ، وادمان الكحول يتفشى بشكل مفجع والمخدرات تستأثر باحاديث الناس ، وموجة الاجرام تتضاعف في مناطق عدة ، واعراض الفساد والانحلال تزداد ظهورا ... »

وبعد ، قد اتهم بالتجني على الاتحاد السوفياتي ونظام الحكم الشيوعي فيه . ولكن ، هل تصدق التهمة بالعلماء الثلاثة الذين ما برحوا يعيشون في ظل هذا النظام .

من فمكم ندينكم ايها الشيوعيون !

ومن هنا يتضح ان الشعارات البراقة التي يطلقها الشيوعيون هي أكبر خديعة للجماهير . ديموقراطية ... حرية ... اشتراكية ... عدالة اجتماعية ... رفاهية العمال والفلاحين ... دولة العمال والفلاحين والطبقات الكادحة ... كلها شعارات جوفاء يستغلها الشيوعيون لاغراء الشعوب التي لم تذق ، بعد ، بؤس الشيوعية دون أن يطبقوا منها حرفا واحدا منها في الاتحاد السوفياتي أو في أية دولة شيوعية اخرى .

فالديموقراطية تعني تسلط قبضة من الشيوعيين على شؤون البلاد ورقاب العباد دون ان تتاح للشعب حرية تقرير المصير او يمنح حق اختيار حكامه في انتخابات حرة كالتي تشهدها البلدان الديموقراطية الحقة . ولا بد من القول ان الحزب الشيوعي السوفياتي يخشى الانتخابات الشعبية ويرهبها ويدرك ان اية انتخابات تجري في الاتحاد السوفياتي لا بد أن ترسم نهاية النظام الشيوعي في البلاد . فالاتحاد السوفياتي تحكمه اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الذي يضم ، حسب الاسماء المدونة في السجلات الرسمية ، احد عشر مليون عضو يتحكمون بمصائر ٢٣٥ مليون نسمة يشكلون مجموع الشعب

السوفياتي ويسوقونهم كالسوائم .

والحرية ، ترديد المبادىء الماركسية ــ اللينينية كالببغاء وعدم السماح بالاطلاع على العقائد الاخرى او الاستماع الى ما يخالف التعاليم الماركسية . أي ان الحرية الشيوعية تعني عبودية الفكر واللسان ، ناهيك عن القلم .

والعدالة الاجتماعية تعني مساواة الجميع في الفقر ، باستثناء قادة الحزب الشيوعي والحكام وجنرالات الجيش الاحمر دون ان يملك أحد حق المطالبة بزيادة اجره او بتحسين اوضاعه وان كان محروما من الحد الادنى للعيش اللائق الكريم .

ودولة العمال والفلاحين تعني استغلال العمال والفلاحين الى اقصى حد لحساب الحكام البورجوازيين .

ان ما عايشته وشاهدته في كل مكان يتناقض مع هذه الشعارات الجوفاء . هنالك كبت وارهاب ودكتاتورية غاشمة يسندها الجيش الاحمر بدباباته ومدافعه وجميع وسائل الدمار الاخرى ، بالاضافة الى فقر مدقع يعيش فيه الفرد العادي . وهنالك ايضا أبشع استغلال للانسان ، وعندما تكون الدولة هي التي تستغل الفرد وتصادر حرياته ، فهذه هي المأساة الحقيقية : مأساة الانسان الاعزل الضعيف امام جبروت الدولة وتسلطها ، اذ أن من اليسير على العامل في دولة ديموقراطية حرة ان يسأل رب العمل أن يزيد له راتبه ويحسن اوضاعه ، فاذا أبى رب العمل ذلك عليه اعلن الاضراب وتظاهر لرغمه على تحقيق مطالبه . أما في الدولة الشيوعية ، فالعامل اجير عند الدولة تحظر عليه المطالبة بزيادة راتبه وتحسين اوضاعه والا رمته بالعمالة للامبريالية والاستعمار واعتبرته عدوا للمبادىء الماركسية ــ اللينينية . اما التظاهر والاضراب فممنوعان ويشكلان جريمة تؤدي بصاحبها الى السجن وربما الموت . ولا احسبكم تجهلون الوف الالوف الذين هلكوا في بعض الدول الشيوعية برصاص الشيوعيين لانهم تجاسروا واضربوا وتظاهروا مطالبين بالغذاء والكساء .

الفقر والبؤس والشقاء تطبع الاتحاد السوفياتي والمعسكر الشيوعي كله . والانسان لا يقتات من الشيوعية ولا يعيش من الشعارات الشيوعية ولا يشرب الشهد من سفن الفضاء والصواريخ ... فما يقال عن ان الاتحاد السوفياتي هو دولة العمال والفلاحين هراء وتضليل لان الحزب الشيوعي يهيمن على نقابات العمال جميعها التي تحولت الى اداة لتنفيذ الاوامر الحزبية ، ولم نسمع يوما ان احدى النقابات احتجت او طالبت بزيادة الاجور ، مثلا . فهل هذا دليل على ان العمال السوفيات لا مطالب لهم او انهم بلغوا مرتبة مادية ممتازة ؟

قلنا في صفحة سابقة ونعيد اليوم ان دخل العامل في الاتحاد السوفياتي يأتي في مؤخرة دخل العامل في اخر دولة من الدول غير الشيوعية ، وحتى الدول المتخلفة . فالحد الادنى لدخل العامل الشهري يبلغ ستين روبل عادي ، أي اربعة جنيهات استرلينية فقط. فهل يوجد عامل واحد في السودان او في أية دولة عربية اخرى يرضى بأن يتقاضى أربعة جنيهات استرلينية في الشهر ؟ وهل يوجد عامل في أية دولة غير شيوعية لا يملك الحرية للمطالبة بزيادة اجره ورفع مستوى معيشته ؟

ان افضل طريقة للتعرف الى الاتحاد السوفياتي هي أن ننظر اليه كمدينة خاصة بعمال شركة كبيرة واحدة يسيطر عليها رب عمل واحد هو الدولة . واسوأ من ذلك هو ان العامل مرغم على القبول بما يفرض عليه في هذا المجتمع الذي يحكمه ربالعمل — أي الدولة — بما تملكه من أجهزة وجيوش وبوليس ومعتقلات وسجون ومراسيم تعسفية لمعاقبة المتمردين وتأديبهم .

وقلما يتعزى السكان بالخرافة القائلة انهم يملكون جميع الصناعات والمصانع . فهم يحسون بأنهم يملكونها كما يملك السجين زنزانته في السجن . اما الحديث عن المساواة بين الجميع فخرافة ، اذ أن عامة الشعب تتساوى في الفقر وفي وجوب التضحية بكل سعادة ورفاه في سبيل الحزب والمبادىء الماركسية — اللينينية بينما

يتقلب قادة الحزب والحكام والقادة العسكريون في بحبوحة ونعيم يضاهي ما تعرفه الدول الراسمالية . حتى ان الاعضاء الحزبيون العاديين ينعمون بامتيازات تتضاعف كلما علا المنصب الحزبي او تفانى الانسان في خدمة المبادىء .

هكذا تنهار الاسطورة الشيوعية وتذوب الشعارات لتدين الشيوعيين بالتضليل والخداع والبهتان .

ولن تجدي الانتصارات العلمية والاقمار الصناعية والصواريخ والاسلحة الحديثة المتطورة في انقاذ الشعب السوفياتي من فقره ومحنته لكنها تضاعف هذه المحنة اذ أن انفاق مئات الملايين من الروبلات في المجالات الاقتصادية والاجتماعية افضل من تبديدها على الصواريخ والتسلح .

ونرى من المفيد أن نبين هنا ان الاتحاد السوفياتي اتجه ، بعد الحرب العالمية الثانية والاهوال التي واجهها ، الى تقوية الجيش الاحمر الذي كاد يهزم امام القوات الالمانية التي شارفت على حدود موسكو لولا الدعم الغربي والثلوج التي اقعدتها عن الحراك . ثم ركز على الصناعات الثقيلة وابحاث الفضاء مستعينا في هذا المجال بالعلماء الالمان الذين جاء بهم من القطاع الشرقي من المانيا وانفق اموالا طائلة حتى استطاع ان يطلق في عام ١٩٥٧ اول قمر صناعي ثم اطلق في ابريل ١٩٦١ اول رجل الى الفضاء يدعى جاجارين . فاستأثرت هذه الانجازات باهتمام العالم ولفتت الانظار الى الاتحاد السوفياتي الذي استغلها للاشادة بمقدرته على منافسة الدول الرأسمالية وليوهم العالم بأن النظام الشيوعي يفضل النظام الرأسمالي كأن هذه الانجازات تكفي لاشباع الجياع وشفاء المرضى ورفع مستوى المعيشة للشعب . وهل يصح اعتبارها مقياسا للحكم على اي نظام راسماليا كان ام شيوعيا ؟

بديهي القول ان الحياة في الاتحاد السوفياتي لا تسير في خط متواز مع انتصارات الفضاء وشعارات السياسة الخارجية . الهوة عميقة بينها . فالصناعات ما زالت تحبو . والانسان يعيش في مزرعة

كبيرة مقفلة يفتقر فيها الى حاجات الانسان العصرية . واذا رسمنا تقدم الاتحاد السوفياتي على شكل عمودي ، اتضح لنا أن ابحاث الفضاء والاسلحة الذرية وبعض الصناعات الحربية تمثل قمة العمود بينما يرسف الانسان عند القاعدة وتفرق بين الاثنين أجهزة الدعاية الضخمة .

الفرد والمجتمع محور اي نظام في العالم . هما المقياس الحقيقي لنجاح النظام او فشله انطلاقا من ذلك نقول ان الانسان السوفياتي عنوان صارخ لفشل التجربة العملية للتطبيق الاشتراكي للماركسية اللينينية . فهو ما زال يعيش في حالة زرية من التخلف الاقتصادي والتقشف المادي وسط قيود اجتماعية وفكرية وسياسية واجتماعية حولت الاتحاد السوفياتي الى سجن كبير . ويجد صعوبة كبيرة في الحصول على الطعام وتأمين حاجياته اليومية . فالصفوف الطويلة من الادميين التي نراها في كل لحظة أمام الدكاكين والمتاجر تتهافت على الطعام أصدق شاهد على ما نقول . واذا اردت ان تشتري علبة سجائر ، مثلا ، او علبة كبريت او لحمة او خضار لا بد من أن تقف الساعات الطويلة في الصفوف المزدحمة حتى يحين دورك ، وقد تنال مرادك او تخفق في الحصول على شيء اذا نفذت البضاعة من المتجر .

لحظات الانتظار الطويلة التي عشتها ارقب دوري لدخول المطعم كانت بالنسبة الي من اقسى اللحظات شعرت اثناءها بتفاهة النظام واحتقاره انسانية الانسان وكرامته ومعاملته اياهم كالقطيع .

أما متطلبات الحياة الاخرى التي يعتبرونها برجوازية فالحصول عليها شاق . اذا اردت ان تحصل على ثلاجة او سيارة عليك ان تتقدم بطلب ثم يدرج اسمك في لائحة المنتظرين ليحين دورك بعد اربع او خمس سنوات اذا حالفك الحظ .

... وهذا أقصى ما استطاعت الدولة الماركسية الاولى ان تحققه بعد خمسين سنة من التطبيق العملي للماركسية اللينينية .

الفصل الرابع

ارهاب يسبق الانهيار

الحياة في داخليات الطلبة وخارجها غير طبيعية . فقد ضرب النظام الارهابي حصارا على كل انسان ، سوفياتيا كان ام اجنبيا. ويحس الاجانب بهذا الحصار في كل لحظة ويشعر الانسان بأن كل شيء يراقبه ويتجسس عليه داخل الغرفة الضيقة ، في قاعة الدرس في الشارع ، بل في كل مكان وفي كل لحظة .

خطوات الانسان معدودة . كل شخص يخاف رفيقه في المسكن حتى يخيل للانسان ان الجدران والظل ونوافذ حجرته تتجسس عليه وتحصي عليه انفاسه ونبضات قلبه ... رقاده ، اكله ، شربه .. كل شيء مخابرات واساليب بليدة ومكشوفة حتى في معاهد العلم والنور . يجب أن يعرف المسؤولون ماذا تأكل وماذا تشرب ومع من تسهر وكيف تنام وكيف تبني صداقاتك بالاخرين وذلك لكي يمعنوا في اذلال الانسان وينحروا كرامته ويرهبوه ويزعزعوا الثقة في نفسه ويسلطوا الخوف عليه حتى يمتنع عن انتقاد النظام ويرضى بواقعه .

لقد بدل الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ملامح الانسان ونفسيته واخلاقه وشخصيته وطبيعته بصورة جذرية . وكانت النتيجة : « لا انسان » ، اي ان الانسان السوفياتي اضحى حيوانا لا يأكل الا ما يوفره له الحزب الشيوعي ولا ينطق الا بما يحشو به الحزب دماغه من مبادىء وتعاليم وشعارات . هذا ما شاهدته

وعايشته .

ان الحزب الشيوعي يعرف كل شيء عنك منذ الصباح حتى المساء حتى يطبق النعاس جفونك . وقد يعرف اي نوع من الاحلام تراودك .

الحياة في الاتحاد السوفياتي تشبه حياة السجون والمعتقلات . ولست ابالغ اذا قلت أن البلاد سجن كبير مليء بالفودكا والنساء والمخدرات التي يقدمونها لابناء اسيا وافريقيا .

وعندما بانت لي ولرفاقي هذه الحقائق وجهنا خطابات رسمية وشخصية الى المسؤولين في الوزارة بواسطة الملحق الثقافي السوداني في موسكو طالبين العودة الى السودان . وقد ركزنا . عند ذكر الاسباب ، على موضوع السكن واحضار الزوجات دون ان نشير الى الاسباب الاخرى لئلا نمس شعور سلطات الاكاديمية ونخلق ازمة بين الملحق الثقافي ووزارة التربية والتعليم العالي في موسكو . لكن جميع المساعي التي بذلها الملحق الثقافي لم تسفر عن نتيجة . وما لبث ان اقتنع باستحالة بقائنا وسط هذه الظروف الشاقة فوجه الى وزارة التربية السودانية كتابا يقترح فيه اعادتنا . وهكذا كان .

ثم زرت برلين الغربية ولندن في طريق عودتي الى السودان والتقيت عددا من اخواني السودانيين الذين ارسلوا للتخصص في الدراسات العليا في منازلهم فكادت الدهشة ان تعقل لساني عندما شاهدت المستوى الاجتماعي الرفيع الذين يعيشون فيه . جميع العائلات التي زرتها في لندن كانت تقطن في شقق جميلة ونظيفة تتكون من ثلاث حجرات وتتوافر فيها جميع وسائل الراحة الحديثة. وفي كل لحظة كان الاعجاب بهذا المستوى يظهر بجلاء في احاديثي وتعليقاتي اذ أن مدير الاكاديمية في موسكو يسكن في حجرة واحدة. وقد لفتت تعليقاتي انتباه احد الاصدقاء الذي بادرني بقوله : « . . هل كنت في السجن » .

ان الانسان في الاتحاد السوفياتي يعيش في معتقل كبير يفصله عن العالم . فهو لا يعرف شيئا عن العالم الخارجي وعما يجري فيه من أحداث لانه ممنوع من مغادرة البلاد لاي سبب . وليس هذا فقط، بل ان المواطن السوفياتي لا يستطيع ان ينتقل من منطقة الى اخرى داخل البلاد ، اي ان الانسان الذي يعيش في موسكو لا يسمح له بالانتقال الى ليننغراد مثلا او اية مدينة او بلدة اخرى قبل ان ينال اذنا خاصا من السلطات المختصة . ولكي يحصل على هـذا الاذن يجب ان يوجه طلبا يرفق به الباسبورت ، وعلى السلطات ان توافق على الطلب او أن ترفضه او ان تجمده بضعة أشهر دون ان يحق لصاحبه الاعتراض او المراجعة . وفي حالة الموافقة يمنح الانسان تأشيرة خروج لمدة محدودة فقط . هكذا يحس الانسان بأنه غريب في وطنه لا يقوى على الانتقال بحرية كما هي الحال في الدول الديموقراطية .

وفي محاولة لترسيخ الانعزالية في نفوس السوفيات نجد ان وسائل الاعلام والدعاية كالاذاعات والتلفزيون والصحافة ودور النشر تنصرف ، صبح مساء ، لتمجيد الحزب الشيوعي ومؤسسه فلاديمير لينين ، وتتغنى بالانتصارات الماركسية وانجازاتها دون ان تنسى الانظمة الرأسمالية والامبريالية الفاشية والاديان التي تصفها بأنها رجعية تعرقل مسيرة الانسان نحو العلى .. مع العلم ان الحزب الشيوعي السوفياتي يحكم الاتحاد السوفياتي بأكبر واخطر قـوة فاشية ورجعية وثنية عرفها العالم القديم والحديث .

كما ان الاستماع الى الاذاعات الخارجية محظور قانونـــا ويعرض صاحبه للعقاب الشديد . اما الصحف والكتب الاجنبية فلا يبين لها اثر في جميع المكتبات التي تزخر بالكتب الماركسية وتعاليم ماركس ولينين و« الالهة » الحمر الاخرين . وفي كل حجرة من داخليات الطلبة يوجد مذياع ينقل الى الطلاب ما تبثه الاذاعات . وعلى الجميع ان ينصتوا الى البرامج وخصوصا تلك التي يعدهـــا الحزب الشيوعي لاغراض دعائية . من هنا وجب القول ، مرة اخرى، ان الشعب السوفياتي يعيش وراء ستار كثيف من العزلة

التامة . . . انه الستار الحديدي الذي تحدث عنه ونستون تشرشل قبل اكثر من عشرين عاما والذي ما زال ينشر ظلاله ليعمي البصائر ويصرفها عن الحقيقة .

لكن هذا الستار بدأ ينحسر ، بعض الشيء ، بفضل تدفق البعثات الدراسية والسياح على الاتحاد السوفياتي ليثير في اوساط الشعب تيارات اخذت تشتد بفضل الاحتكاك الذي فتح عيون الناس هناك على واقعهم المخزي فادركوا ، اذ ذاك ، ان النعيم الذي تحاول الدعاية الشيوعية ان تصوره ما هو الا جحيم ناره تستعر ، وان الحياة في الخارج تفضل الف مرة الحياة داخل الستار الحديدي .

تعرفت الى سوفيات عديدين واختلطت بهم فوعيت مآسيهم. واتضح لي أن الشبان والبنات يحاولون ان يتوددوا الى الاجنبي بشكل او بآخر قبل ان يطرحوا عليه السؤال التقليدي: « هل تملك دولارا او جنيها استرلينيا ؟ » اما السبب فهو رغبتهم في شراء بعض الملابس الجيدة من المتاجر الخاصة التي لا تتعامل الا بالعملات الاجنبية ، اسوة بالاجانب وبقادة الحزب الشيوعي وجنرالات الجيش الاحمر .

قال لي طالب جامعي يتخصص في الهندسة : « تزعم حكومتنا أنها تقدم المساعدات الى الدول المتخلفة في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية لكي ترفع مستوى شعوبها . لكننا نلمس من خلال احتكاكنا بأبناء هذه الدول الذين يفدون علينا بأن من يحتاج الى المساعدة هو نحن . لان اوضاعهم الاقتصادية تفضل اوضاعنا بمئات المرات . ناهيك عن مناخ الحرية والديموقراطية الذي ينعمون به . فهم قادرون على السفر الى أي مكان في كل مكان . ويستطيعون قراءة اية صحيفة او اي كتاب ويستمتعون بمشاهدة البرامج التلفزيونية المتنوعة . بينما نغرق نحن في لجج الفقر والكبت والحرمان والتخلف. وعندما يحدثنا اجدادنا عن حكم القياصرة نترحم عليه ونحن اليه لانه كان اكثر انسانية ورحمة ، على الرغم من عسفه وارهابه ، من

النظام الشيوعي . »

وعندما كنت اقول لاحد السوفيات اني من السودان حيث املك منزلا فسيحا وسيارة وثروة لا بأس بها وانعم مع اخواني السودانيين بالحريات العامة كان يفغر فـاه ويسأل : هل انت رأسمالي ؟

فهل هذا هو مفهوم الرأسمالية عندهم يا ترى ؟

ان الحزب الشيوعي يعلمهم ان هناك شيئا مرعبا اسمه الراسمالية . والراسمالية معناها استغلال الفرد للفرد . . . الخ . لكن احدا لا يستطيع ان يطرح سؤالا يتبادر ، باستمرار ، الى الذهن الصافي : لماذا يستغل الحزب الشيوعي او الدولة امكانات ٢٣٥ مليون نسمة في الاتحاد السوفياتي ؟ ولماذا تعسكر جيوش الاحتلال السوفياتية في المانيا الشرقية وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ودول اخرى ؟ المصلحة الشعوب ؟

ان كل ما عايشته وشاهدته يجيب بالنفي عن هذه الاسئلة . فالانسان السوفياتي فقير معدم يفتقر الى جميع الحاجيات العصرية التي ينعم بها الانسان في الدول غير الشيوعية . دخل الفرد وحياته اليومية دليلي على ذلك . ادنى مستوى من الدخل الفردي تجده في الاتحاد السوفياتي ومستعمراته الشيوعية . كما ان الشعب السوفياتي يتقلب في سجن كبير تنعدم فيه جميع الحريات وتغشاه القيود والاغلال . فحرية الكلمة تعني في نظر الشيوعيين العمالة للامبريالية العالمية كما حدث لعدد من الكتاب امثال باسترناك والاربعة الاخرين الذين حكم عليهم بالسجن المؤبد لانهم انتقدوا النظام الشيوعي ودعوا الى تحسين اوضاع الشعب المعيشية ومنحه مزيدا من الحريات والديموقراطية .

حرية الكلمة الفردية ممنوعة . الحرية الاقتصادية مرفوضة . حرية الثقافة والفكر مرفوضة . حرية النشر مرفوضة . بكلمة ، ان الاتحاد السوفياتي مقبرة الحريات والكرامات الانسانية .

لقد شوهت رقعة السنوات الخمسين من الحكم السوفياتي

باكداس من جثث الابرياء تحلق في اجوائها اشباح آلاف الضحايا التي اعيد اليها اعتبارها بعد قتلها . وبات الحديث مباحا ، اليوم ، عن عمليات الارهاب التي كان المرء يخشى ان يلمح اليها في الماضي .

ويخلو تاريخ الاتحاد السوفياتي من الابطال . جميع الذين تقلبوا على السلطة ، باستثناء لينين ، تحولوا الى خونة ومجرمين. حتى أن لينين نفسه تتهمه بعض الاوساط الشيوعية بأنه ابله مأفون. خروشوف(١) أسقط ستالين من قائمة الابطال وحطم تماثيله ونبش جثته في ضريح لينين . والحكام الحاليون عزلوا خروشوف وقدموه طعما للنسيان . وهكذا عمد كل من تربع في سدة الحكم الى الطعن بمن تقدمه من الحكام ثم تعرض هو نفسه للتعرية والتشويه من الذين احتلوا مكانه . خمس وعشرون سنة من السنوات الخمسين المنصرمة سيطر فيها رجل اسكرته السلطة هو ستالين وعشر سنوات اخرى تسلط فيها خروشوف . كان كل منهما الها يوم كان في الحكم ثم استحال خائنا ومجرما بعد اسقاطه . وتتطلع الجماهير الى السلسلة المتلاحقة من الخونة امثال تروتسكي وزينوفيف واخرين فاذا بهم افراد عصف بهم جنون الاضطهاد كستالين وياغودا ويزهوف وبريا او متآمرين ضد الحزب امثال مولوتوف وكاغانوفيتش ومالنكوف ، او مهرجين فوضويين كخروشوف .

تبا لحزب لم يعرف في تاريخه سوى قادة متآمرين او خونة او مهرجين . والويل لشعب يتحكم به هؤلاء .

يلهث الشيوعيون السودانيون وشيوعيو الدول العربيةالاخرى ليجتروا الشعارات الشيوعية ويحاولوا ان يغروا بها الشعب العربي، وليلتزموا التزاما أعمى بكل ما يصدر عن الكرملين منقرارات وتوصيات وتوجيهات . دافع هؤلاء عن مذابح ستالين وسجونه

(١) روى خروشوف في مذكراته الاهوال التي ذاقها الشعب السوفياتي على يدي ستالين والتصفيات التي تمت والتي اودت بحياة ملايين الابرياء .

ومعتقلاته ومشانقه بحرارة وبرروا هذه الاعمال الدموية الوحشية بانها تخدم الديموقراطية والحرية في الاتحاد السوفياتي . وظل ستالين الها يعبدونه حتى اعتلى خروشوف السدة وشن هجومه الشهير على ستالين ، فانبرى الشيوعيون العرب في كل مكان لترديد اقوال خروشوف واتهاماته دون ان يحفلوا بمواقفهم السابقة وانطلقوا يمجدون خروشوف «الاله» الجديد ويسبحون بحمده دون أن يتذكروا حسنة واحدة لستالين الذي اعطى بلاده الكثير .

ثم راحوا يتفننون ، نقلا عن الشيوعيين السوفيات ، في ابتداع مفاهيم جديدة وغريبة للحرية والديموقراطية تتفق مع الاوضاع الدكتاتورية الرهيبة التي يعيشها الشعب السوفياتي ويشككون بالديموقراطية الغربية ويعتبرون كل من يخالفهم الرأي رجعيا وعميلا للامبريالية ، مع ان التهمة تصح فيهم . فهم العملاء الذين يتلقون الاموال والتعليمات من سادتهم لينفذوها وان تناقضت مع سيادة بلدهم وكرامة شعبه .

من كل ما ورد في هذا الفصل وفي فصول اخرى نصدر الحكم التالي : الشيوعية افلست . بطلت ان تكون عقيدة . لقد تحولت الى نظام حكم يعتبر اسوأ نظام عرفه الانسان في تاريخه . وبدأ قادة الحزب الشيوعي في موسكو يتراجعون عن خطهم الماركسي — اللينيني بالسماح باعتماد قاعدة الربح والادارة الذاتية للمصنع ... الخ .

قال لي احد الطلاب : « اننا نتقلب في يأس قاتل . فالامل بمستقبل افضل تلاشى نهائيا ، ولن يتجدد الا بتجدد النظام ، اي بالغاء النظام الشيوعي واستبداله بنظام حر ينبع من الارادة الشعبية ويرتكز على المبادىء الديموقراطية والحريات . »

واضاف : « كيف تريدنا ان نعلق الامال على هذا النظام الذي وصمه الفشل في جميع الميادين . فالبلاد تعاني من نقص في الايدي العاملة يتسبب في عرقلة الاعمال وعدم تنفيذها في مواعيدها . اربعة واربعون بالمائة من سكان الارياف يحتاجون الى باسبورات داخلية تمكنهم من الانتقال الى المدن للالتحاق بالصناعات . وبرامجنا

الزراعية تنتهي دائما بكارثة . واني اعتقد بـأن الحكومة تؤثـر الاستمرار في سياسة التحجر هذه على اعتماد اي تعديل قد يؤدي ، في نظرها ، الى تقويض النظام من أساسه . »

ويقيني ان موعد الانفجار يقترب ولو ببطء . ولا بد أن يأتي يوم، وان طال امده ، تطالعنا فيه انباء عن انهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي اما بتسلط العسكريين على الحكم او من خلال ثورة شعبية عارمة تحرق الشعارات الشيوعية وقادتها وتعيد الى الشعب حقوقه وحرياته . ذلك ان مراقبين عديدين يجزمون بأن البلاد تتخبط في حالة ما قبل الثورة . هذا ما كانت عليه فرنسا قبل الثورة. وما عرفته هنغاريا قبل ثورة ١٩٥٦ . وما عاشته روسيا نفسها قبل الثورة البولشفية .

ويمكن القول ان الناس بدأت تسير على طريق الثورة بعدما حدثت عدة انتفاضات عمالية في اماكن عدة في الاعوام الثلاثة الفائتة كادت ان تتطور ويتفاقم خطرها لو لم تلجأ السلطات الى العنف عند قمعها . ففي دونيتز تحدثت براڤدا عن فوضى في العمل والانتاج ادت الى اضطرابات عمالية . وترددت في موسكو همسات عن اضطرابات دامية وقعت في كرانوسدار حيث هاجم المواطنون قوات الحـرس والميليشيا وسيطروا على المدينة . عشرات الاشخاص قتلوا واصيبوا بجروح . وفي مناطق اخرى ثار العمال على قادتهم واسروا عددا من المهندسين ولم يفرجوا عنهم الا بعدما تدخلت قوات مصفحة استطاعت ان تعتقل عشرات من العمال كل ذنبهم انهم طالبوا بزيادة اجورهم وتحسين اوضاعهم المعيشية .

وقدم البروفسور برزيزنسكي صورة صادقة عن النظـــــام وتفسخه وقرب انهياره . قال : « فقد الحزب معظم المقومات التي تجعله وثيق الصلة بالفترة الجديدة . فالتاريخ السوفياتي تميز في السنوات الاخيرة بمشهد حزب يبحث عن دور يلعبه بعدما خسر ثقة الجماهير والعمال والفلاحين . وما زال موظفو الحزب يشكلون جزءا من منظمة بيروقراطية مركزية ثابتة تتمسك بامتيازاتها بشكل متزايد

... فتزداد الهوة بين الحزب والشعب ويتفاقم النزاع الداخلي . وقد يصبح الشباب مصدرا للانتفاضة ويزداد قلق المستهلكين وترتفع مطالب القوميات ... »

واضاف : « من المقدر ان يعم الفساد ويتعرض النظام للخطر وتبرز الثغرة التي شهدتها روسيا قبل الثورة لتنذر بتفسخ النظام السوفياتي . »

وهذا القول اورده المؤرخ السوفياتي اندريه املريك عندما تنبأ بانهيار النظام الشيوعي قبل عام ١٩٨٤ . ولا بد من القول هنا ان املريك يتمتع بشعبية واسعة في مختلف الاوساط السوفياتية ويحظى بعطف كبير خصوصا بعدما نفي الى معسكرات العمل في سيبيريا حيث قضى عاما ونصف العام عاد بعدها الى موسكو لينشر كتابا بعنوان « رحلة اجبارية الى سيبيريا » كان محور محاكمة جديدة ونفي جديد(١).

ويؤكد املريك ان البلاد تشهد حركات عديدة تناويء النظام . وهذا ما لمسته شخصيا في اوساط شتى . واسباب المعارضة متعددة : اجتماعية ، اقتصادية ، قومية ، دينية ، الخ .. وتشهد موسكو ومدن الاتحاد السوفياتي الاخرى سلسلة من المنشورات السرية توزع ، سرا ، على المواطنين وتنتقد النظام وتعدد مساوئه . من هذه المنشورات صحيفة « الاحداث الحالية » التي علقت على ارتفاع نسبة الشعور القومي والوطني عند الشعوب غير الروسية ثم ذكرت ان وسائل القمع التي تعتمدها السلطات ضد المواطنين من غير الروس قد ادت الى زيادة الشعور الوطني بدلا من خفضه ، وهنالك الان قوميات اخرى تنشر صحفا على غرار الصحيفة اعلاه . ففي يناير ١٩٦٧ ظهر اول عدد من « صحيفة اوكرانيا » تضمن عدة حوادث قمع حصلت في اوكرانيا في العام نفسه .

---

(١) ترجى مراجعة كتاب « الارهاب الشيوعي ضد الاسلام » الصادر عن مؤسسة « حقائق عن الماركسية » . (الناشر)

ويشكل المنشقون الوطنيون ، بالاضافة الى المحتجين بصدد حقوق الانسان والدين ، الفئات الرئيسية الثلاث للمعتقلين السياسيين في الاتحاد السوفياتي ، وتشير المنشورات السرية الى ان العديد من غير الروس ينفذون احكاما بالسجن او بالاشغال الشاقة بسبب جرائم « قومية » ، وهم يتابعون نضالهم للحقوق المشروعة في السجن بواسطة الاضراب عن الطعام وتهريب عرائض تحمل طلباتهم الى الخارج وغير ذلك من الوثائق .

وعلى الرغم من حدوث حالات فردية من اعمال الشغب المناوئة للروس (تحدثت صحيفة الاحداث المحلية عدد (يونيو) ١٩٦٧ عن اعمال شغب وقعت بين الاوزبيك والروس في طشقند استمرت عدة اسابيع ورافقتها اعمال تخريب فردية قام بها الشيشين) فان الاحتجاجات اتخذت بصورة عامة شكل طلبات منطقية للحقوق الرئيسية . ولقد نظمت عدة تظاهرات سلمية ، وخاصة من قبل التتار في القرم جرى تفريقها بالقوة بواسطة الميليشيا والبوليس السري . اما طلبات الانفصال فقد جاء معظمها من اوكرانيا ، وايدتها وثيقة او وثيقتان عامتان ، واشارت رسالة كتبها سبعة معتقلين سياسيين في اواخر عام ١٩٦٦ ووقعها كل من يوري غالانسكوف والكسندر جنزبورغ ، الى المخاطر الناجمة عن عدم تلبية المطالب الوطنية وحرمان الشعب من حقه في تقرير مصيره الوطني .

واشار عدة كتاب الى زيادة الوعي الوطني نتيجة سياسة قمع القوميات . فقد اكد مؤرخ اوكراني مشهور هو فالنتين موروز في مقال سري بعنوان « مسلسل المقاومة » ان ابعاد الشيشين واضطهادهم مثلا ادى الى تقوية روح الولاء الوطنية بينما الفئات التي لم تتعرض الى مثل هذه الضغوط من امثال الموردفينيين كانت اقل معارضة للاندماج . ففي رسالة كتبها اوكراني انضم الى روسيا في يونيو ١٩٦٧ ، ونشرتها الصحيفة المذكورة آنفا وصف الكاتب في جمهوريتي التتار والباشكير السوفياتيين ما صادفه اخيرا من عداء ضد الروس والاوروبيين لم يكن موجودا قبل الحرب .

كما ان قوة المعارضة تزداد في اوساط المثقفين والطلاب لتورث القيادة الحزبية متاعب جمة وقلقا كبيرا حملها على العودة الى بعض القواعد الارهابية الستالينية . فقد الغت بعض الحريات التي سبق لخروشوف ان منحها للشعب ثم عززت فـرق التجسس والمـراقبة ودفعت بالوف المواطنين المشكوك في ولائهـم للحـزب والنظام الى معسكرات العمل .

ويلعب الاجانب دورا رئيسيا في تقويض النظام . اذ ان رؤيتهم من قبل السوفيات والعيش معهم ولو في نطاق ضيق محدود سيخلق بعض النتائج السيئة على النظام الشيوعي كما اسلفت وقد يؤدي ، في النهاية ، الى انفجارات واسعة النطاق عندما تتفتح عيون الشعب على الحقيقة المخزية التي يعيشـون فيها .

ان الشيوعية تحمل عناصر فنائها في داخلها لانها تصطدم بابجدية حقائق الحياة : حرية الانسان الديموقراطية والاقتصادية وحقه في ان يختار الحياة التي ترضيه . ومن المؤكد انه سيأتي يوم نشهـد فيه تحولات خطيرة في النظام الشيوعي الذي عاد بالمفاهيم الانسانية مئات السنين الى الوراء بالرغـم من الدعايـات الضخمـة وشعاراته « التقدمية » وقوته العسكرية الهائلة . فعندما تنفجر ارادة الشعب تصمت المدافع .

ذلك ان القوة العسكرية لا تعكس ابدا الصـورة التقدميـة للدولة . لان التقدمية الحقيقية هي تقدمية الفكر الانساني والارتفاع بالانسان ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا الى اعلى مستوى وتهذيبـه وتحقيق حريته ورفاهه . لكن ان يعيش الانسان عبدا ذليلا ، كما هي الحال في الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية الاخرى ، فهذه هي الرجعية والدكتاتورية الغاشمة التي عادت بالانسان الى قرون الظلام وحولته ، من جديد ، الى آلة او قطعة تؤدي دورها في الانتاج دون ان يتوافر له اي امل بالتقدم والتطـور او بتحسين اوضاعه المعيشية او ان يحلم بمستقبل افضل .

الفصل الخامس

موسكو ... والعرب

ما عجبت لشيء كما عجبت لحسن نوايا بعض اخواني العرب الذين وضعوا كل ثقتهم بالاتحاد السوفياتي وعلقوا عليه الامال لانقاذهم من اسرائيل وتحرير الاراضي العربية .

استغل بعض العرب انسحاب القوات الاسرائيلية ـ الفرنسية ـ البريطانية من الاراضي المصرية التي احتلتها في اعقاب حرب ١٩٥٦ ليزعموا ان وقف الحرب والانسحاب لم يتما الا بفضل الاتحاد السوفياتي . ونسي هؤلاء ان الموقف الايجابي الذي وقفته الولايات المتحدة الاميركية هو الذي حرر الاراضي المصرية .

والا ، فلماذا يعجز الاتحاد السوفياتي عن تحرير الاراضي المصرية والاردنية والسورية التي تحتلها القوات المصرية منذ حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ ويرغم اسرائيل على الجلاء عنها اذا كان قد نجح في ذلك في عام ١٩٥٦ ؟

صحيح ان الاتحاد السوفياتي عوض على مصر وسوريا بعض الاسلحة التي فقدتها ، لكن الاسلحة دفاعية اي انها لا تصلح للهجوم على صحراء سيناء وتحريرها . ثم اكتفى بتأييد مصر والعرب ببيانات وتصريحات ومقالات تدعو الى انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة ؟؟؟ وصفق العرب وهللوا لهذا التأييد دون ان يتنبهوا الى خطورته .

نحن نعلم ان جميع الاراضي التي احتلتها اسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨ حتى اليوم تعتبر ارضا عربية تجندت الحكومات والشعوب العربية لاستعادتها واعادة الفلسطينيين اليها . هذا ما اعلنه الرئيس عبد الناصر عشرات بل مئات المرات في جميع خطبه وتصريحاته قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، وما وعد به الشعب الفلسطيني ، وما استعد له طوال بضعة عشر عاما . لكن الاوضاع تبدلت بعد حرب ١٩٦٧ ، اذ ان الاراضي التي احتلتها اسرائيل قبل هذه الحرب لم تعد ارضا عربية ، بل اضحت ملكا مشروعا لها واطل علينا الاتحاد السوفياتي ببدعة تحرير الاراضي العربية المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ فقط .

فماذا يعني هذا ؟ يعني ان الاتحاد السوفياتي يحرص على سلامة اسرائيل واستقلالها واستمرارها وسيادتها ضمن حدود ما قبل ١٩٦٧ شأنه في ذلك شأن الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وبريطانيا والدول الاخرى . وباطلاقه شعار تحرير « الاراضي العربية المحتلة» يكون قد حمل العرب على الاعتراف بحدود اسرائيل التي كانت قائمة قبل الاحتلال واكساب هذه الحدود ضمانات دولية كانت تطلبها اسرائيل منذ مدة طويلة . وهذا هو الدور الذي تقوم به الاحزاب الشيوعية العربية التي تأتمر بأوامر موسكو وتتلقى منها التوجيهات لتنفذها وان كانت تتعارض مع مصلحة العرب القومية وكرامتهم . وهم على استعداد للدفاع عن اسرائيل عندما يتبدل موقف موسكو منها .

انطلاقا من هذه الوقائع يمكن القول ان الخدمة التي اداها الشيوعيون السوفيات لاسرائيل لم تقدمها اية دولة اخرى . ومع ذلك نرى عربا كثيرين يشيدون بموقف الاتحاد السوفياتي المخلص من العرب . ولسنا ندري اين يكمن الاخلاص في هذا العمل . اما نحن فنجزم بان الاتحاد السوفياتي ينسج اخطر مؤامرة على الدول العربية لصالح اسرائيل ويحكم قبضته على بعض الدول العربية لمنعها من القيام بواجب تحرير جميع الاراضي العربية المحتلة واعادة الفلسطينيين الى ديارهم . اذ انه يؤمن بان استمرار اسرائيل يخدم

المصالح السوفياتية في منطقة الشرق الاوسط ويساعد على بسط النفوذ السوفياتي باسم « خديعة » مساعدة الشعوب العربية ضد الصهيونية العالمية .

ولسنا ندري ، أيضا ، كيف يمكن للاتحاد السوفياتي ان يكون ضد اسرائيل . ان الشهـــور التي قضيتهـــا في الارض السوفياتية تكشفت عن حقائق مذهلة لان تأثير اليهود ظاهر في كـــل مكان وفي مختلف نواحي الحياة . فهناك عدد كبير من اليهود يحتلون مناصب رئيسية في الاتحاد السوفياتي ويشتركون في اتخاذ جميع القرارات ومنها قرارات تزويد العرب بالسلاح ومدهـــم بالخبراء . وهجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل تستمر في جو من التكتم ولا ينقضي عام واحد حتى يهاجر الوف من هؤلاء ، نصفهم من الشبان يوفرون لاسرائيل طاقات دفاعية وانتاجية فعالة .

فكيف يمكن ان يكون هؤلاء اليهود الذين يتسلمون مقـــدرات الاتحاد السوفياتي ضد اسرائيل ؟ وهل يعقل ان يوافقوا على مس اسرائيل بأي ضرر ؟.

نسمع من يقول ان اليهودي السوفياتي يختلف عن اليهـــود الاخرين لانه ضد الصهيونية . هـــذا القول هراء لان كـــل يهودي سوفياتيا كان ام غير سوفياتي يدعم اسرائيل ويتفانى في نصرتها لانها تمثل في نظره الحلم الموعـــود . والهجرة اليهوديـــة من الاتحـــاد السوفياتي الى اسرائيل دليل حي على صدق نظرتنا وقولنا .

في أية حال ، لقد جنى الاتحاد السوفياتي من ظروف حـــرب حزيران ١٩٦٧ فوائد كثيرة من أهمها :

١ — تقلص النفوذ الغربي في المنطقة العربية وتثبيت اقـــدام الاتحاد السوفياتي في الجمهورية العربية المتحدة التي تتمتع بموقع جغرافي واستراتيجي ممتاز .

٢ — تامين الحدود الجنوبية له بعد تقلص النفوذ الاميركي في هذه المنطقة .

٣ — استطاع الاتحاد السوفياتي لاول مرة ان يبني قواعد بحرية وجوية في البحر الابيض المتوسط وتمكنت قطع الاسطول البحرية من ان ترسو في موانيء البحر الابيض المتوسط لتحمي حدود البلاد الجنوبية .

وقد دفعت نكسة حزيران ١٩٦٧ بعض الدول العربية التي تقع على شاطيء البحر الابيض المتوسط الى عقد اتفاقات عسكرية مع الاتحاد السوفياتي تسمح له ببناء قواعد بحرية وجوية في المنطقة. ونالت هذه الدول اسلحة من الاتحاد السوفياتي مقابل مبالغ باهظة تسدد على اقساط بفائدة قدرها اثنان بالمائة ، وخبراء تدفع رواتبهم بالعملة الصعبة .

ثم نشطت الدعوة لتوثيق الروابط مع موسكو «صديق العرب» و « البلد المحب للسلام » ... للاستعانة به على تحرير « الاراضي العربية المحتلة » والافادة من خبرته وانجازاته « الرائعة » في مختلف الحقول . ويبدو ان بعض الشعوب العربية تأثرت بهذه الاقوال المضللة ونسيت ان الاسلام والشيوعية لا يجتمعان . فالالحاد عدو الايمان .

ذلك ان المعسكر الاشتراكي عبارة عن تظاهرة سياسية ضخمة وفاشلة وهو العدو الاول للشعوب العربية المسلحة . لكنه عدو في ثوب صديق . فالنظرية الماركسية — اللينينية هي التي تحرك كل خطوة من خطوات السياسة الداخلية والخارجية في الاتحاد السوفياتي وتحارب الاديان . والشيوعيون يدينون بهذه النظرية بالطبع ، لذلك فان الدين عدوهم الاول لكنه سيكون الصخرة التي ستتحطم عليها الشيوعية . ولن تحقق الشيوعية اي تقدم في العالم العربي الا يوم ينتهي الاسلام . والاسلام لن يزول لانه كلمة الله المنزلة .

هذه حقيقة اولية يجب ان ندركها . فلا يعقل ان يكون الاتحاد السوفياتي — ناهيك عن الدول الشيوعية الاخرى — صديقا مخلصا للعرب المسلمين . ان وراء شعارات الصداقة المزعومة يختفي

الخطر العظيم الذي يجب ان ندركه . والاستعمار الشيوعي في اوروبا الشرقية دليل واضح على بشاعته وتقنعه بشعارات الصداقة المزعومة . فالقوات السوفياتية تجثم على صدور الشعوب في هذه الدول لتمنعها من الثورة على النظم الشيوعية المستبدة فيها وتحرمها من حقها في تقرير مصيرها والتطلع الى مستوى افضل من العيش . مأساة المجر ما زالت تعيش في الاذهان . ومأساة الشعب التشيكي تهز نفوس الاحرار . والحركات التحررية في بولندا ورومانيا دليل حي على بشاعة الاستعمار السوفياتي المقنع . ونخشى ان نواجه في احد الايام اوضاعا مماثلة اذا لم يتنبه العرب .

ان اكراه الشعوب الاوروبية الشرقية على الخضوع للاتحاد السوفياتي شهادة جديدة على اكذوبة الصداقة المزعومة . فهناك مصالح اقتصادية وايديولوجية وثقافية تتحكم بالعلاقات بين الدول . لكن هذه المصالح يجب الا تتم على حساب الشعوب وحرياتها .

والحقيقة الاخرى هي اننا ما زلنا متخلفين نحاول ان نلحق بمسيرة الحياة . لذلك فاننا نحتاج الى العلم والمعرفة والخبرات الفنية والتكنولوجية والهندسية والطب والزراعة والانتاج الحيواني ... وقد اوضحت لي تجربتي في الاتحاد السوفياتي حقيقة دامغة وهي ان الشعب السوفياتي ما زال يفتقر الى مثل هذه الخبرات الفنية والعلمية في فروع الصناعات وعلى الاخص الصناعات الخفيفة التي تنتج اصنافا رديئة جدا لا يمكن ان تنافس ، بأي شكل ، الصناعات الاخرى في الاسواق الخارجية كصناعة الاقمشة والملابس واجهزة الراديو والتلفزيون والثلاجات والعربات الصغيرة ... جميع صناعات المواد الاستهلاكية متخلفة .

لقد حان لنا ان ندرك ان الاتحاد السوفياتي بنى سمعته العالمية على ابحاث الفضاء والاسلحة الذرية والصواريخ وقوته العسكرية ، وهي امور لا نحتاج اليها في العالم العربي . نحن نريد ان نقف على اقدامنا اولا . نحن نحتاج الى الخبرات الفنية والتكنولوجية الخفيفة حتى يتم تصنيع خاماتنا على نمط علمي حديث .

نريد ان نوجد كادرا علميا يساعد على خلق الدولة العصرية التي يعيش فيها الفرد والمجتمع في رفاهية ورخـــاء . ولسنـــا بحاجة ، بالتالي ، الى سياسة ومظاهر فارغة وشعارات براقة لا تعدو كونها تهريجا وفراغا تعيش فيه الدول المتخلفة وتدفـــع ثمنه الجماهـــير وتستفيد منه القيادات السياسية الفاسدة . والاتحاد السوفياتي مع الدول الشيوعية الاخرى لا يمكن ان يمنحنا اية خبرة او علم او تقدم ولا يمكن ان يساعدنا على بناء دولة عصرية لانه يفتقر الى جميـــع مقومات الدولة العصرية .

واود ان اختتم الكتاب بالقصة التالية التي رواها لي صديق مصري زار « باكو » عاصمة « اذربيجان » السوفياتية والتقى هناك طالبا مصريا قال له انه تعرف الى سائق تاكسي من « باكو » سأله :

— « يبدو انك مصري ؟ »

اجاب الطالب : « نعم » .

رد عليه السائق بقوله :

— « ارجو ان تبلغ الرئيس عبد الناصر ، عند عودتك ، ان شعب اذربيجان كان ينظر اليه بالحب والاعجاب وكنا ننتظره هنا ليحررنا من الحكم الشيوعي السوفياتي ، فما باله يقع ضحية هذا الحكم ؟ » .

فهرست

سلســلة كتب
« حقائق عن الماركســية »

---

* ... وضاعت الجولان
* لينين : المسيح الاحمر الدجال
* الارهاب الشيوعي ضد الاسلام
* حقائق عن كيم ايل سونغ وكوريا الشمالية
* جــدار العـــار

المؤلف .. والكتاب

* ولد الدكتور ياسين يوسف صادق في السودان عام ١٩٣٨
* نال شهادة الدكتوراه في الطب البيطري من جامعة الخرطوم
* تسلم منصبا رئيسيا في وزارة الموارد الحيوانية بين عامي ١٩٦٣ — ١٩٦٧
* في عام ١٩٦٧ حصل على منحة دراسية من حكومة السودان للتخصص طوال اربع سنوات في اكاديمية موسكو للطب البيطري
* في عام ١٩٦٨ قطع دراسته وعاد الى الخرطوم بعدما عجز عن تحمل مشقات الحياة في الاتحاد السوفياتي
* يروي في مذكراته ، باسلوب واقعي مجرد ، مشاهداته وتجاربه في جميع الحقول الثقافية والاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية ...
* يمكن تلخيص المذكرات بالعبارة التالية : « الاتحاد السوفياتي جحيم وسجن كبير يتقلب في احط دركات التخلف والانحلال الخلقي والاجتماعي ، بالاضافة الى كونه مستنقعا للالحاد ووثنية القرن العشرين » .

الثمن ليرة لبنانية واحدة
او ما يعادلها